ماركوس كلارك

العجوز والطريق

وقصص أخرى

(قصص قصيرة)

نقله إلى العربية: حيدر بابكر

العبيكان
Obeikan

ماركوس كلارك

العجوز والطريق وقصص أخرى

العبيكان

مجموعة قصص قصيرة، هي من أذكى النصوص التي تصور شخصيات المجتمع وتتسلل إلى أعماق الناس، فيها خفة الظل، والسخرية اللاذعة بالنفس وبالآخرين، إلى جانب حكايات الحكمة وتحولات المجتمع وطبقاته، وتقرأ فيها صورة عن المجتمع الأسترالي وطريقة حياته، وتحولات الريف والمدينة والسفر والمصانع، وعن معاناة الإنسان لينسجم مع مجتمعه ومع مشكلاته.

تقرأ فيها عن أول يوم في الوظيفة، وعن فتاة السيرك، والذكريات، ونوازع الشباب وسكينة الشيخوخة، وحكاية النجوم وتأملها مع مسافر عجوز مرَّ بأقسى تجارب حياته، فيتماسك عند المصائب التي تنفذ إلى لب العلاقة بين الطمأنينة والقلق، بين من تجاوز الخسارة ومن يفكر فيها باستمرار؛ فتكون خسارته الكبرى غرقه في تذكرها واستمرار حسراته وتأمله لدرجة إصابة روحه بالمرض، وتصبح النفس المنكسرة هي التي تحتاج إلى العلاج قبل رجل العجوز المكسورة في الحادث.

ISBN:9960-54-282-3
9789960542829
ORD:000260-1

موضوع الكتاب: القصص

موقعنا على الإنترنت:
http://www.obeikanbookshop.com

العجوز والطريق

وقصص أخرى

(قصص قصيرة)

للكاتب الأسترالي

ماركوس كلارك

نقله إلى العربية

حيدر بابكر

العبيكان
Obeikan





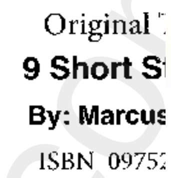












Original T

9 Short St

By: Marcus

ISBN 09752

right © by I

rized translation

Marcus.172 Edv

كان بالتعاقد مع ما

© العبيكان 200

ISBN 3 - 282

العبيكان للنشر

مام- جنوب برج المم

ص.ب 2937588

الأولى 1428هـ . 07

النشر

ياض، 1428هـ

أ. العنوا

/ 2723

كة مكتبة العبيكان

تقاطع طريق الملك

ص.ب 465012







الفهرس

1- العجوز والطريق

فيما كنت أتمشى وكلبي بجانب التلة محاولاً مجاراة سرعته بصعوبة في صعودها، وعندما بلغنا الجانب الآخر من التلة وقع بصري على حافلة المواصلات العامة تقف في المحطة المجاورة. رأيت الرجل العجوز ـ لم أكن أعرف اسمه ـ على الرغم من أنني أستطيع تمييزه من شكله إلى حد ما، لمحته وهو يمر من خلف الحافلة، ثم وهو يقف إلى جانب الرصيف رافعاً رأسه ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين إلى شمس الأصيل، ثم يشيح بوجهه وهو يفرك عينيه وكان يبدو كما لو كان أحولَ، وفي نفس الوقت بدأ يهم بعبور الشارع، وفجأة ظهرت سيارة (فان) نوع هايلوكس تنطلق مسرعة صوب الرجل قادمة عبر انحناءة الشارع الذي يطوق التلة كما الأفعى.

حاولت أن أصيح محذرا الرجل العجوز، لكن يا للهول كانت محاولتي متأخرة جداً، ففي جزء من الثانية صدمته السيارة المنحدرة من قمة التلة كما الإعصار، كانت صدمة عنيفة، قذفت به إلى جانب الحاجز الحجري عند حافة الشارع، حيث ارتطم بشدة ثم تدحرج وتقلب حتى استقر بلا حراك عند ممر المشاة. كان مشهداً دراميأ مريعاً، اختلط صوت الارتطام بصوت صرير عجلات السيارة وهي تحاول جاهدة تفاديه، ثم رأيت السيارة تتوقف بعنف إلى جانب الشارع، فترجل منها رجل قوي البنية، كان أشعث مغبرًّا يبدو من ثيابه التي تلطخها آثار الإسمنت أنه عامل بناء أو ممّن يشتغلون في صب الخرسانة المسلحة.

عبرت الشارع ثم ربطت مقود كلبي حول إحدى أعمدة السياج... انحنيت أحدق في الرجل العجوز المُلقى على الأرض، كان ممددا بلا حراك ... اقترب منا عامل البناء وانحنى يتفحص الرجل وقال لي:

- تباً! لم أره، لقد فوجئت به يركض نحوي مباشرة!

- نعم، شاهدته وهو يركض نحوك، من الأفضل استدعاء الإسعاف.

أخرج هاتفه النقال من غمده الجلدي واتصل بالطوارئ ... سمعته يعطي وصفاً دقيقاً لما حدث، ثم أغلق هاتفه... انحنيت أكثر على الرجل العجوز ثم قلت:

- أعتقد أنه ينبغي تمديده على أحد جانبيه.

- هل تظن أنه ما يزال حيا؟

- لا أدري .. يبدو لي أنه لا يتحرك.

دفعته برفق معدلا وضعه، نعم ... إنني أعرف هذا الرجل، إنه الرجل العجوز الذي كان يقضي جل يومه يهيم في الطرقات، منقباً في حاويات النفايات عن الطعام وبعض المخلفات الأخرى. غير أن الأغرب من ذلك أن الكل يعلم أنه ثري جداً ... لكنه لم يكن يغتسل بانتظام، لذلك يمكنك أن تشم رائحته من مسافة عشرة أمتار تقريباً. وهاأنذا الآن أشتمها، يا لها من رائحة نتنة!! بدا وجهه كأنه لم يعرف شفرة الحلاقة أبداً، وشعره الخشن يكاد يلامس عينيه المتسختين، وقد تركت السنوات العجاف آثارها الثقيلة على وجهه المجعد. كان من الصعب تقدير عمره، لكن دعنا نفترض أنه في العقد السابع. اقترب عامل البناء مني أكثر ثم ابتدرني قائلاً:

- لا يتنفس، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك، هل تعرف كيف تجري له تنفساً اصطناعياً؟

- ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك، ماذا عنك؟

لم أقل شيئاً لبرهة من الوقت، كنت أعرف مبادئ عملية التنفس الاصطناعي، لقد شاركت في دورتين منذ مدة طويلة جداً. لكنني الآن وأنا أحدق في الرجل العجوز المتسخ، لم تكن فكرة محاولة إجراء التنفس الاصطناعي فكرة محببة إلى نفسي، إلى جانب أنني لم أكن متأكداً مما يجب علي فعله بالضبط. كنت مرتبكًا، وأصدقك القول إنني لم أجهد نفسي في أي محاولة تذكر لتذكر الطريقة، فقلت لعامل البناء:

- لست متأكداً، أعتقد أنه يجب الضغط على الصدر... لست متأكداً تماماً. أعتقد أنه من الأفضل انتظار الإسعاف.

من الأفضل ألا أحشر نفسي في أمر أنا لست متأكداً منه وليست لي فيه ناقة ولا جمل، لكنني نظرت إلى أسفل، إلى حيث الرجل العجوز مضطجع على الأرض بلا حراك، وتساءلت في نفسي إن كان سيموت قبل وصول الإسعاف. كان وجهه يميل إلى الزرقة فقد كنت على الأقل أعلم أن أول شيء يجب علي فعله هو تمديد المصاب على أحد جانبيه، ثم إمالة الرأس إلى الوراء قليلاً. لكنني إذا فعلت ذلك ينبغي علي تطبيق الخطوة التالية والمهمة وهي منحه قبلة الحياة، وكان مجرد التفكير في ذلك يبعث القرف والاشمئزاز والغثيان إلى نفسي، فقلت:

- أعتقد أنه لا يتنفس، ربما يكون لسانه قد انحشر فأغلق مجرى التنفس، أو ما شابه ذلك ... لا أدري.

-أمِل رأسه إلى الوراء قليلاً.

وضعت أذني بالقرب من فمه لأسمع ما إذا كان يتنفس، لا شيء ... لكن الأمر المؤكد أنني أستطيع أن أشم رائحته الكريهة. بدأت أشعر بالقلق، وكنت أعلم علم اليقين أن بإمكاني إجراء تنفس اصطناعي له، قد لا تكون المحاولة على النحو الصحيح، لكن قد تنقذ حياته. وبدلاً من ذلك شعرت بحرج عظيم وأنا أفكر فقط ... مجرد تفكير في وضع فمي في فمه ... ذلك الفم الذي يحمل تلك الأسنان السمراء اللون، والذي تنبعث منه تلك الرائحة الكريهة، ربما أصاب بالإيدز أو بمرض داء الكبد الوبائي من نوع (ب)، غير أن الأمر أكبر من ذلك، إنه يتعلق بمفهوم ملامسة فمي لفمه، عملية التنفس – فم لفم – رجل عجوز على درجة عالية من النتانة ... ببساطة لا أعتقد أن بإمكاني إجراء هذه العملية. أضف إلى ذلك: من المؤكد أن الإسعاف لن يتأخر. ومن يدري، فقد يكون قد توفي سلفاً، إذن فما الفائدة من وضع فمي في فمه!! ابتدرني عامل البناء قائلاً كأنه قرأ أفكاري مؤكداً على تمنعي:

– يا إلهي تصدر منه رائحة كريهة.

– نعم، إنه يقضي جل وقته في نبش النفايات.

– أوتعرفه؟

– شيء من هذا القبيل، لقد رأيته مراراً في الجوار، أتمنى ألا يتأخر الإسعاف، ربما سيتوفى في غضون الوقت الذي سيستغرقه الإسعاف في الوصول إلى هنا.

في هذه الأثناء مرت امرأة أربعينية بجانبنا، كانت قد خرجت للتو من منزل مجاور، راعها منظر الرجل العجوز، فقالت بنبرة ممزوجة بالقلق والشفقة:

– هل هو بخير؟

أجبتها دون أن أرفع رأسي:

– لا أعتقد ... يبدو أن تنفسه قد توقف.

– فليقم إذن أحد ما بإجراء تنفس اصطناعي له ... عن طريق الفم. لقد رأيت ذلك في التلفزيون، هل تعرف كيف تقوم بذلك؟

وبنبرة حازمة أجبتها بالنفي، إلا أن عامل البناء حدجني بنظرة مريبة، ثم قال بنبرة لينة وبصوت يميل إلى الهمس:

– لا ألومك يا أخي.

لم تسمع المرأة ذلك. كنت أشعر وقتها أن وجهي يحمر خجلاً، كنت أدرك في قرارة نفسي أنه كان ينبغي أن أحاول إنقاذ حياته، لكنني لم أطق وضع فمي في فمه. ونظرت إلى الأسفل مرة أخرى لعلني أعيد النظر في هذا الأمر. كنت أستطيع رؤية أسنان مهشمة بنية اللون من فرط تراكم الأوساخ، وكنت أرى أيضاً لحية خشنة يلتصق شعرها بعضه ببعض بسبب الوسخ، وسبلة بيضاء لم تحلق منذ زمن طويل. قررت التزام الصمت محاولاً إخلاء نفسي من هذه المسؤولية ... دنت المرأة مني أكثر، وقالت:

– قد يتوفى قبل وصول الإسعاف إذا لم يكن قادراً على التنفس.

- لقد كنت أتمشى مع كلبي فقط، ربما يوجد طبيب في الجوار.

- نعم إن عيادة الطبيب في المركز التجاري، سوف أدخل إلى منزلي للاتصال به.

وابتدرها عامل البناء قائلاً:

- لدي هاتف جوال هنا، ما هو الرقم؟

- سوف أدخل حالاً للبحث عن الرقم.

- سوف آتي معك.

رافقها الرجل إلى منزلها. فيما وقفت بجانب جسد الرجل المسجى، آملاً أن يمر بنا شخص يعرف طريقة إجراء التنفس الاصطناعي. أين الناس؟ لماذا لا يهب أحد لمساعدته؟

استلزم وصول الإسعاف حوالي خمس عشرة دقيقة... كنا أربعة أشخاص نقف إلى جانب الرجل العجوز نحدق فيه بيله مقيت. تراجعت إلى الوراء ووقفت بعيدًا أراقب رجل الإسعاف وهو يجذب أداة بلاستيكية بسرعة ويجري بوساطتها عملية التنفس الاصطناعي للرجل العجوز. تراجعت إلى الوراء حتى وصلت إلى السور وجلست بالقرب من الحاجز حيث ربطت كلبي أراقب الوضع عن كثب، تلا ذلك وصول الشرطة، ثم توافد عدد غير قليل من المتفرجين، لماذا لم يأتوا من قبل حينما كان وجودهم ضرورياً للمساعدة؟ كان عامل البناء يتحدث إلى رجال الشرطة، ثم رأيته في تلك الأثناء يشير بيده ناحيتي. تقدم نحوي أحد رجال الشرطة وسألني إن كنت رأيت ما حدث. قلت له:

- نعم، لقد شاهدت الرجل وهو ينزل من الحافلة. ولاحظت أنه يبدو كما لو أنه فوجئ بأشعة الشمس مسلطة على عينيه، ثم شاهدته يتقدم فجأة في اتجاه التايوتا. وحاول سائق السيارة جاهداً تفاديه، لكنه لم يفلح.

دوّن الشرطي كل تلك التفاصيل، إلا أنني كنت أجد صعوبة بالغة في التركيز، وأنا أحاول الاستماع إلى رجال الإسعاف في الوقت نفسه. وأخيراً سمعت أحدهم يقول:

- لقد تسبب لسانه في اختناقه. لو قام شخص بتعديل وضعيته إلى أحد جانبيه، لربما كان الآن على قيد الحياة.

وضعوه على النقالة، ثم حملوا الجثة إلى سيارة الإسعاف... بدأت الجمهرة تخف بالتدريج .. فرغ الشرطي من استجوابي، وقمت بفك وثاق الكلب محرراً مقوده، وغادرت المكان مع كلبي، وطفقت أحدث نفسي مراراً وتكراراً:

- كان بإمكاني إنقاذه ... كان بإمكاني إنقاذه!

كنت أتخيل الرجل العجوز خلال الأيام القليلة التي أعقبت الحادثة، وكيف طاوعتني نفسي على تركه يموت دون أن أحاول تقديم المساعدة له من أجل إنقاذ حياته وما ذلك إلا بسبب عجرفتي، وشعوري بالتعالي ونفوري وكرهي وخشيتي من التلوث بقذارته. شعرت حينها بالاشمئزاز من نفسي ومن تصري في الأرعن، وبدأت أفكر كيف سيكون الوضع إذا ترك أحد ما جدي مثلاً يختنق بلسانه حتى الموت بحجة أنه لا يريد التعامل مع رجل نتن الرائحة؟ إن ذلك الرجل العجوز كان أبا وجداً، وفي وقت قريب سوف أعرف المزيد عنه.

تلقيت بعد أربعة أيام من تلك الحادثة مكالمة هاتفية:

- هل أنت ريجي غرين؟

- نعم، معك ريجي غرين، تفضل.

- مرحباً، لقد حاولت جاهداً تعقبك وذلك من أجل دعوتك للمشاركة في مراسم جنازة هاري دير.

- متى ستقام مراسم الدفن؟

- بعد غد ... الساعة العاشرة صباحاً، في الكنيسة الإنجيلية. أرجو أن تشرفنا، لأنني أود مقابلتك لأمر مهم.

- حسناً، في الواقع أنا لا أهتم كثيراً بالمشاركة في الجنازات، لكنني أشعر أنني خذلت هاري، ولا أريد أن يحدث أي تقصير آخر من قبلي ... حسنا سوف آتي، بالمناسبة كيف استطعت العثور عليّ؟

- في الحقيقة تحدثت مع رجال الإسعاف، ثم تحدثت مع بعض الناس الذين يعيشون في الجوار. لقد تعرف بعضهم عليك. هل لديك أي مانع؟

- لا، لا، إنه مجرد حب استطلاع.

وهكذا ذهبت لأشارك في مراسم الجنازة، جلست في مقعد في الصف الأخير من قاعة الكنيسة، التي كانت قاصرة على أقارب المتوفى. كان عدد الحضور قليلاً جداً، وتعاطفت من أجل الأسرة. غيرت مكاني مقترباً أكثر من الصف الأول. كان ابنه جورج يقوم بعملية التأبين، الأمر الذي كنت أخشاه، فقد شغل هذا الهم تفكيري طوال اليومين السابقين. ماذا لو اكتشفوا أنني قد تركت الرجل يواجه مصيره التعيس، فمات؟

تقدم ابنه من المنضدة المخصصة لتلاوة الكتاب المقدس، كان يعتصره الألم، ويبدو أثره واضحاً على قسمات وجهه، وكان يرتدي بذلة قاتمة اللون، وهكذا بدأ يتحدث عن والده:

- لعل معظم سكان هذا الحي يعرفون هاري دير، كانوا يعرفونه فقط من هيئته دون معرفة اسمه. وكما تلاحظون أيها السيدات والسادة كيف أن عدداً قليلاً من الناس يشاركون الآن في تأبينه، تُرى ماذا يعتقد الناس عنه؟ هلا سمحتم لي بالتحدث عن حياته لبضع دقائق. نشأ هاري إبان حالة الكساد التي شهدتها حقبة ثلاثينيات القرن العشرين. لم يشهد أي واحد منا تلك الأوقات، ونحن لا نعرف عنها الكثير، بل حتى إن معظم الشباب لا يدركون أنه حدث شيء من هذا القبيل قبل الحرب العالمية الثانية. فخلال حالة الكساد الاقتصادي كان من الصعب إيجاد عمل، وأُجبرت آلاف العائلات على هجر منازلها والهيام على وجوههم في الطرقات، كان يتعين على الآباء الذهاب إلى الغابات للبحث عن عمل، ليكسبوا عن طريقه ما يسدون به رمقهم، لكن لم تكن هناك أي فرص عمل. كانوا يسيرون أياماً وليالي يحملون فؤوسهم، وأعتقد أنكم تعلمون ماذا يعني ذلك، لقد كانوا يقومون بأعمال غريبة، إذ كانوا يعيشون على أكل الكنغر والولب والأفاعي والأسماك والحيوانات الميتة، وكل ما تقع عليه أيديهم. وقد استمر الكساد بدرجات متفاوتة حوالي ستة أعوام عجاف. ومات الكثير منهم جوعاً، كانوا يرتدون ملابس ممزقة وأحذية بالية، وكان المشردون يهيمون على وجوههم في كل مكان، تضج بهم الطرقات. وتفككت أسر بسبب غياب الأزواج في رحلة البحث عن العمل، وكان هؤلاء الأزواج لا يعودون إلى أسرهم في أغلب الأحيان. وأحياناً لا يعودون لأنهم

كانوا يشعرون بالعار من الاعتراف بعدم قدرتهم على التكفل بأسرهم. وفي بعض الأحيان كانوا يموتون. وباختصار كان ذلك حال الناس إبان الكساد الاقتصادي.

صمت الابن لبرهة متفرساً وجوه الحضور ثم استطرد قائلاً:

- لقد عاش هاري خلال ذلك الكساد الاقتصادي كمراهق، وكم عانى من لسعات الجوع، كان يذهب إلى المدرسة حافي القدمين، عاشوا في إسطبل للخيل لمدة ثلاث سنوات، وعندما بلغ الثالثة عشرة ذهب للعمل من أجل إعالة إخوانه وأخواته. كان أبوه قد ذهب إلى الغابات محاولاً العثور على عمل في مجال جز الخراف، وبعد عامين من البحث المضني العقيم والترحال المجهد، أنهى حياته بإغراق نفسه في أحد الأنهار. فاضطُر هاري للعمل في أحد المصانع بمعدل ثماني عشرة ساعة في اليوم حتى بلغ سن دخول الجيش.

فيما كان الابن يسرد قصة والده المؤثرة، كنت أصغي بإمعان مبهوراً بقصة هاري دير، وكل الذي كنت أعرفه عنه حتى تلك اللحظات هو أنه مجرد رجل عجوز نتن الرائحة. فعرفت أنه قاتل ببسالة في الحرب، وجرح في بطنه حتى تم تسريحه عام 1945، وبسبب جرحه كان من الصعب عليه إيجاد عمل، لكنه استطاع أن ينجح في مجال ما، وأنشأ أسرة، ثم كبر الأولاد وتزوجوا وتركوه. وبقي لمدة طويلة بعد وفاة زوجته التي صرعها السـرطان في البيت نفسـه الذي اشـتراه عام 1946، والذي شيده في أرض كبيرة تبلغ أربع هكتارات، وتقع في الضواحي المزدهرة من المدينة، وعندما تقدم هاري في العمر أُصيب بمرض الزهايمر اللعين، وكثيراً ما

كان يفقد ذاكرته وكانت تنتابه حالات تشوش بسبب المرض. لكنه كان يتذكر بوضوح نشأته وما كابده من معاناة وفقر وجوع في مدة الكساد، ويتذكر أطفاله المساكين الذين كانوا ينتظرون الرزمة الصغيرة التي كان يحصل عليها من المصنع آخر الشهر مقابل عمله.

وفجأة أصبح كل شيء واضحاً بالنسبة لي، وتفهمت لماذا كان هاري يهيم في الطرقات متنقلاً من حاوية نفايات إلى أخرى باحثاً عن علب الألمنيوم أو الزجاجات الفارغة. وأدركت أنه بسبب مرضه كان يعيش الماضي. وكان الناس في مدينتنا يعاملونه كالمجذوم أو المنبوذ، ويحاولون تفاديه كما لو كان مجرماً خطيراً.

كنت أجلس في الكنيسة أصغي باهتمام إلى ابنه يحكي عن هاري حتى وصلت القصة إلى الحادثة التي تسببت في مقتله. وكنت أشعر بالخجل أكثر وأكثر، وشعرت كأن النار تشتعل في أذني، وأنا أرتجف خوفاً لأنني كنت موقناً أنها لحظات حتى يخبر ابنه الجميع بالجُرم العظيم الذي ارتكبته، وكيف رفضت عمل أي شيء لمساعدة الرجل العجوز. لكن ما حدث بعد ذلك كان أسوأ بكثير مما كنت أخشاه، عندما واصل الابن القصة قائلاً:

- عندما ضربت السيارة هاري أطاحت به أرضاً وبدأ يختنق. ولم أكن هناك وقتها، لكنني استفسرت عما حدث من سائق سيارة الإسعاف. في البداية أخبرني ألّا أحد هب لتقديم العون لهاري، لأنهم يرون فيه مجرد رجل عجوز نتن الرائحة ليس إلا. لقد صعقت وتألمت أشد الألم عندما علمت أن هناك أناساً في مجتمعنا لا يضيرهم ترك رجل عجوز يخنقه لسانه حتى الموت دون بذل أي جهد لمحاولة إنقاذه. ألححت

في استفساري مع السائق، وفي النهاية أخبرني السائق بالحقيقة، أخبرني أن هناك شخصاً واحداً تقدم إلى والدي وأجرى له عملية تنفس اصطناعي ـ فم لفم ـ وأن ذلك الرجل لم يرد أن يفصح عن شخصيته، ولا يريد أن يُكافأ مقابل هذه البادرة الطيبة، وهكذا طلب من سائق سيارة الإسعاف ألا يخبر أحداً. إن ذلك الرجل هو السيد شارلي فاونتين، لقد فعل ما ينبغي أن يفعله أي مواطن محترم، وإن هذا الرجل موجود معنا الآن، لن أقوم بالكشف عنه، لكنه معروف في المنطقة بكلبه من نوع البكسر. وفي اليوم الذي توفي فيه والدي تصادف أن كان يتمشى مع كلبه، وعندما وقعت الواقعة ما كان منه إلا أن هب مسرعاً عابراً الشارع، وحاول على الفور إنقاذ والدي. لكن للأسف لم يوفق، وكما تعلمون توفي والدي في مكان الحادث. وفي الواقع إنني مهما فعلت فلن أستطيع أن أجازي هذا الرجل الشهم صاحب الكلب البكسر، الذي حاول إنقاذ أبي، فقط أعتبره مثل أي رجل محترم. ولا يمكن لأسرتنا أن تتصور أبداً أن يترك الناس والدي يموت مختنقاً بينما يقفون حوله ينتظرون سيارة الإسعاف، إنه لأمر محزن حقاً.

لم أنتظر لأسمع المزيد، وعلى كل حال اعتقدت أنه لم يتبقَّ الكثير الذي يقال. كان رأسي يدور وأصبت بالغثيان من فرط شعوري بالذنب والخجل من نفسي. لماذا كذب رجل الإسعاف؟ ... كذب على هذا النحو؟

نعم، لقد ذهبت إلى المقبرة لأشهد مراسم دفن الرجل العجوز. كنت أقف غير بعيد من الموقع، وتقدم الابن إليّ وشكرني على صنيعي حسب

اعتقاده، مصافحاً يدي بحرارة، وشاهدت الناس يحدقون نحوي كأنهم يدركون حقيقة الأمر. ثم ابتدرني قائلاً:

- إنني ممتن لك لبذلك جهداً مقدراً من أجل إنقاذ والدي.

وتمتمت قائلاً في تلعثم:

- حسناً... لا ينبغي .. ترك شخص ما .. ليموت دون محاولة إنقاذه.

- بالطبع، بالطبع... بالمناسبة، سوف يتصل بك المحامي الخاص بي لاحقاً.

- المحامي لماذا؟

خشيت أن المحامي يعرف الحقيقة، وها هو الابن قرر الآن أن يرفع ضدي قضية. ولكنه انتشلني من مخاوفي قائلاً:

- حسناً، لم يترك والدي أية وصية، لكننا نعتقد أنك يجب أن تحصل على شيء ما تقديراً لصنيعك.

- أوه ... لا لا ... إن ما فعلته فقط كان مجرد ... كنت أظن أن والدك مُعدم، أليس كذلك؟

- حسناً... لديه قليل من المال الذي استطاع ادخاره. لكنه يمتلك منزلاً وقطعة أرض. وأعتقد أن المنزل لا يساوي شيئاً، فهو منزل متهالك ومتهدم، إلا أن قطعة الأرض تساوي ...

- أرجوك، إنني أفضل ألا تشملني التركة ... أرجوك.

- أجل، إنني أقدر ما تقوله، وأعجب بنزاهتك، لكننا نحسب أنه لو كان والدي لا يزال على قيد الحياة لسرّه أن يمنحك هدية ما.

- لا، أرجوكم لا تكلفوا أنفسكم، إن ذلك ليس ضرورياً. أنا آسف لكنني يجب أن أستأذن الآن للانصراف.

- أشكر لك حسن صنيعك.

لم أنتظر لحظة، كنت أشعر أنني يجب أن أنصرف بسرعة. قصدت في اليوم التالي مقر الإسعاف، وطلبت مقابلة السيد شارلي فاونتين. كنا نقف في الخارج بالقرب من سيارة الإسعاف النظيفة لدرجة اللمعان، لم يتعرف علي الرجل في بادئ الأمر، فابتدرته قائلاً:

- أنا الذي كنت في مكان الحادث الأسبوع الماضي ... الحادث الذي توفي فيه الرجل العجوز هاري، أتذكر ...؟

- أوه، نعم، تذكرت، أنت الذي كنت تصطحب كلباً، أليس كذلك؟ أهلاً بك، تفضل، ما الذي يمكنني أن أقدمه لك؟

- أريد فقط أن أعرف لماذا أخبرت ابن هاري أنني حاولت إنقاذ والده. وأنت تدرك أن هذا ليس صحيحاً، وأنني لم أفعل أي شيء لإنقاذه!

حدق شارلي فيّ للحظة، ثم جال ببصره في المكان كأنه يريد أن يتأكد من عدم وجود شخص يستمع إلينا ثم أردف قائلاً:

- حسنا، أوتعلم أن الابن ... ما هو اسمه؟

- جورج.

- نعم، نعم اسمه جورج، جاء لمقابلتي وأراد أن يعرف ما إذا كان يوجد أي شخص حاول تقديم المساعدة لوالده.

- وهكذا أخبرته أنني من حاول إنقاذ ...

- لا، أخبرته ألا أحد حاول إنقاذه. أخبرته أن والده كان ممدّداً على الشارع بلا حراك إلى أن توفي مختنقًا بلسانه. إن أي شخصٍ ملم بمبادئ التنفس الاصطناعي، كان بإمكانه إمالة رأس الرجل إلى الوراء، ربما كان سينقذه وكان يمكن أن يكون على قيد الحياة الآن.

كان شارلي يحملق فيّ وهو يتكلم، لكنني كنت أعلم أنه يقول الحقيقة، على الرغم من أنها كانت حقيقة مُرة. نظرت إلى العلامة المميزة المرسومة على قميصه، وتذكرت على الفور دورة إنقاذ المصابين في الحوادث وعملية إجراء التنفس الاصطناعي للمصاب، التي سبق أن اشتركت فيها، نعم، وذلك كان أول شيء درّسوه لنا. ثم قلت له:

- كان ابنه يقول للجميع أثناء مراسم دفن الجنازة إنني أجريت لوالده عملية تنفس اصطناعي ـ فم لفم ـ في محاولة مني لإنقاذ حياته. لا أعرف من أين أتى بهذه الفكرة عني؟

تحرك شارلي معدلاً حمله من قدم إلى أخرى، وبدا لي كما لو أنه يريد أن ينصرف إلى الداخل. مد بصره إلى الشارع الرئيس ثم قال:

- كان الابن منزعجاً جداً عندما أخبرته ألا أحد قدم مساعدة لوالده. كان غاضباً وأجهش بالبكاء، وكان في حالة يرثى لها. وأدركت إلى أي مدى كان الأمر مؤلماً بالنسبة له، فقررت أن أخفف من ألمه. وأخبرته أن

هناك رجلاً حاول تقديم المساعدة لوالده، لكن هذا الرجل لا يريد أن يعرف أي شخص ما قام به، لأنه لم يكن يريد أن يمجده الناس كبطل، فهو يشعر أنه أدى واجبه، وأن ما قام به هو واجب الجار تجاه جاره. وما إن قلت ذلك للابن، حتى أصر على معرفة ذلك الشخص. وكان لزاماً عليّ أن أذكر له اسم أي شخص، الأمر الذي كان متعذراً عليّ، ثم فجأة تذكرتك، وقلت له: «الرجل صاحب الكلب». وأخبرته أنك إنسان متواضع ولا تريد أن يعرف أي أحد ما قمت به. أنا آسف إذا كان ذلك قد سبب لك إحراجاً، لكن الواقع أن هذا جعل الأسرة كلها تشعر بحال أفضل عندما علموا أن والدهم لم يترك ليواجه مصيره مختنقاً بلسانه حتى الموت وسط جمهرة من الناس يحيطون به يحدقون فيه ببلاهة ولم يقدموا له شيئاً.

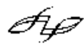
كنت أنظر إلى أسفل، مطأطئاً رأسي خجلاً، أشعر بخجل عميق لدرجة أنني كرهت نفسي، فقلت له:

- نعم، نعم، فهمت، لا بأس في ذلك. أردت ... فقط أن أعرف ما حدث. ما فعلته كان صواباً.

صافحت يده بحرارة، ثم استدرت وانصرفت بقلب مثقل. لم أسمع عن عائلة هاري مرة أخرى إلا بعد مرور ثلاثة أشهر تقريباً عندما تلقيت خطاباً من محاميه، يخبرني فيه أنه قد تم تقسيم التركة وأن نصيبي 10.000 دولار. وكان هناك صك مالي مرفق مع الخطاب، لم أصدق عيني، من المؤكد أنني قرأت الخطاب بشكل خاطئ. وعندما نظرت بتركيز أكثر في الصك لم يكن المبلغ 10.000 دولار بل كان 100.000 دولار.

ذهلت وارتبكت، وملئت أسىً وحزناً. واتصلت بالمحامي في الحال، وبعد أن تجادلت معه لمدة 15 دقيقة استسلمت. وأدركت أنه لا يستطيع فعل أي شيء لتغيير قرار العائلة. كان ذلك أمراً نهائياً، حسب قوله. كان هاري ينتقل من مكب نفايات إلى آخر، يجمع علب الألمنيوم والزجاجات الفارغة، في الوقت الذي كانت تساوي الأرض التي كان يسكن فيها مليوني دولار. لقد أعطوني مائة ألف دولار. وشعرت بالاشمئزاز، وتمنيت لو كانت مائة دولار فقط، لأنها كانت ستجعل ما سوف أقوم به أكثر سهولة.

وفي صبيحة اليوم التالي أودعت الصك في حسابي، وحررت شيكاً آخر بمبلغ 100.000 دولار لفائدة جيش الإنقاذ، وكنت أدرك في دواخلي أنني إن احتفظت بهذا المبلغ فسيحرقني من الداخل، وسيدمرني من فرط شعوري بالذنب، وشعرت أنني إذا احتفظت بهذا المال فهذا يعتبر سرقة. نعم، كان ذلك هو اليوم الذي تحولت فيه إلى رجل ثري لمدة قصيرة من الوقت، نعم، كان ثراءً مادياً، لكنني بعد أن وهبت ذلك المبلغ تحول الثراء إلى نفسي. وأصبحت رجلاً صحيحاً وقوياً عندما تخلصت من ذلك المال، وشعرت بأنني ثري حقاً، لأن الرجل الثري في نظري هو ذلك الرجل الذي يستطيع أن يهب مبلغ 100.000 دولار.



2- النجوم

لا شك في أنك سوف تتعجب لإصراري الشديد على السفر إلى ملبورن في وقت متأخر تلك الليلة. لكن إذا عرف السبب بطل العجب، كنت متوجهاً إلى زيارة عاجلة لفروع شركتنا هناك التي تم بيعها، لكن المدير العام يحاول أن يخدعنا ليستولي على معظم الأصول في أسرع وقت ممكن. وتقرر إرسالي إلى هناك للتعرف على حقيقة ما يجري هناك ووضع حد لذلك.

قدت سيارتي حوالي ثمانمائة كيلو متر في ذلك اليوم، وتخلل ذلك وقفات قليلة، وكنت متعباً جداً. بل أكثر من متعب، وكدت أن أسقط نائماً مرات عدة وأنا ممسك بالمقود. وأذكر أنني غفوت في إحدى المرات لثوانٍ معدودات، وقد ضبطت السيارة على القيادة الآلية بسرعة 110 كيلومتر في الساعة، استيقظت فزعاً مرتاعاً لأجد نفسي في الجانب الخطأ من الطريق، وصوت بوق شاحنة تجر مقطورة يدوي مبدداً سكون الليل ويصمّ الآذان، كانت الشاحنة تسير في اتجاهي مباشرة من الاتجاه المعاكس، وبحركة جنونية لا شعورية عدّلت مقود السيارة في الاتجاه الصحيح في اللحظة المناسبة، وشعرت كأن قلبي سيخرج من قفصي الصدري، لكنني ظننت أن هذا كافٍ لطرد النعاس عني، لكن ما أثار استغرابي أن ذلك لم يكن كافياً لطرد النعاس أبداً. فما إن مرت عشر دقائق أخرى حتى أخذت عيناي تنهاران مجدداً من فرط الإجهاد وتحت وطأة النعاس، جربت كل

شيء من شأنه إبقاء عيني مفتوحتين، لكنهما استمرتا تطرفان وتنغلقان بشكل متكرر. أدرت مشغل الأقراص المغنطة لأعلى صوت، وأبطلت جهاز القيادة الآلي وضبطت مكيف الهواء لدرجة التجمد. إلا أن كل تلك المحاولات لم تجدِ نفعاً، فما كان مني إلا أن توقفت عند أحد المقاهي عندما وصلت أول بلدة.

كان الجو بالداخل هادئاً نوعاً ما، وكان المقهى نظيفاً... تنبعث منه موسيقى هادئة وإضاءة حمراء خافتة. دلفت إلى دورة المياه، وعندما فرغت صعقت لرؤيتي حوالي مائة من الآسيويين تضج بهم صالة المقهى، وكانت حافلتان سياحيتان كبيرتان تقفان خارج المقهى. واستغرق حصولي على كوب شاي وطبق شرائح البطاطس مع شريحة من اللحم والخضار وقتاً طويلاً. كان الآسيويون يشغلون جميع المقاعد تقريباً. والمكان الوحيد الذي بقي شاغراً كان عبارة عن طاولة صغيرة منزوية وراء نبتة زينة كبيرة. وعلى الأرجح ربما يكون عدم شغل أحدهم لهذه الطاولة لأنها كانت تفصلهم عن بقية المجموعة. اتجهت صوب الطاولة وجلست، وبدأت أتناول طعامي، فيما كنت أراقب الآسيويين، أعتقد أنهم كوريون، وكانوا بصحبة دليل سياحي رأيته يصدر إليهم بعض التعليمات. بدأت أفكر في أمر فروع الشركة، وما هو أول شيء يجب عليّ فعله في الصباح عندما أصل إلى هناك. لم أكن أريد حشر الشرطة في الأمر، لكني على الأقل ينبغي أن أهدد السيد جوني فلاش بذلك. وفجأة شعرت برجل شبه أصلع، يبدو في مثل عمري، كان يحدق إلى أسفل في اتجاهي، وابتدرني مستأذناً:

- هل تمانع إن جلست هنا؟

- بالتأكيد، تفضل اجلس، طالما أنك تتحدث الإنجليزية.

- أوه ما هذا الازدحام يا أخي؟

كلانا ضحك، جلس الرجل ثم بدأنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان قد طلب ميلك شيك، بعد أن وضع الكيسين الكبيرين اللذين كان يحملهما إلى جانب الطاولة، وبدا لي كأنه حمال، ثم سألته قائلاً:

- هل أنت مع هذه المجموعة؟

وكنت أقصد الآسيويين، فأجابني موضحاً:

- لا، لقد جئت مع إحدى الشاحنات. إنني أسافر متطفلاً على السيارات إلى ملبورن.

وعلى الفور فكرت في أن هذا الرجل قد يكون عوناً بالنسبة لي إذا أخذته معي، لكنني يجب ألا أستبق الأمور إلى حين معرفة المزيد عنه. إذ إن هناك كثيراً من المجرمين يتظاهرون بأنهم أناس يسافرون متطفلين. وإنني إذا صممت على قطع مسافة المائتي كيلو متر المتبقية إلى ملبورن في تلك الليلة حتما سأحتاج إلى رفيق أتحدث معه أثناء القيادة، وإلا فأنا متأكد أنني سوف أكون فريسة سهلة للنوم على المقود، ثم وجهت كلامي له مستفسراً:

- ماذا حدث لسيارتك؟

- استولت عليها زوجتي، استولت على كل شيء. لقد انفصلنا مؤخراً، 32 عاماً من الزواج، وفجأة انتهى كل شيء. لقد خرجت بعد كل هذا العمر

بهذين الكيسين اللذين أحملهما معي الآن فقط، وملابسي التي على جسمي.

قال ذلك الكلام وأشار إلى الكيسين الكبيرين اللذين يقبعان بجانب قدميه. وكان شعر رأسه يبدو غير مرتب، وتشوب وجهه سمرة طارئة، كما لو أنه كان يقف لمدة طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة في انتظار من يقله. ولاحظت وجود تجاعيد عدة تحيط بعينيه، ولا شك في أنه في الخمسينيات مثلي تماماً. وقال مستطرداً بعد أن شرب جرعة كبيرة من خليط الميلك شيك:

- لم نقتسم ممتلكاتنا بالتساوي بعد طلاقنا... لكنني كنت أمتلك مشروعاً تجارياً، وقد اكتشفت أن المحاسب الذي كان يشرف عليه اختلس هو وأخوه عائدات المشروع، وهرب المحاسب مع زوجتي، وهكذا سلبوني كل شيء ما عدا هذه الأغراض التي أحملها معي الآن.

قال الجملة الأخيرة ثم ضحك. واصلت أكلي وبعد أن التهمت قدراً كبيراً - فقد كنت جائعاً - نظرت إليه وقلت:

- أرى أنك تتقبل الأمر ببساطة وكأن الأمر لا يهمك، ألا تشعر أنك في حاجة لقتل أحد ما؟

وضع مشروبه على الطاولة. نظرت إليه، بدت لحيته المبيضّة كما لو لم يحلقها منذ أيام عدة الأمر الذي جعل منظره يبدو بشعاً. وأجابني قائلاً:

- دعني أكن صريحاً معك، لقد فعلت ذلك في الأسبوع الماضي، كان يمكنني أن أقتل مدينة بكاملها.

كنت ما زلت أسائل نفسي، إذا كان ينبغي أن أحمل هذا الرجل معي إلى ملبورن أم لا، وقلت له بسرعة:

- يا إلهي، إنني كنت أمزح معك فقط.

ضحك ثم أردف قائلاً:

- لقد أدركت كثيراً من الأمور. كان الأمر بالنسبة لي كما لو أنني أصبحت فجأة أرى الحياة من منظور مختلف، منظور جديد تماماً، المهم وغير المهم. وأصبحت أفهم أن كل الذي حدث كان مثل ... مثل ... من الصعب شرح ذلك، لكن الأمر ببساطة كان كلعبة. إن الحياة ليست لعبة، إنني أعي ذلك تماماً، وإذا كان لا بد أن تكون كذلك، فينبغي أن تكون اللعبة التي يجب أن يفوز بها المرء.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة تدل على إحساسه بالارتياح، ثم أتى على مشروبه حتى آخر قطرة. وازدردت آخر قطعة من شطيرة اللحم التي كنت قد طلبتها، ثم رشفت رشفة كبيرة من الشاي. كان الآسيويون يأكلون ويتكلمون، يروحون ويأتون ويأخذون لقطات لبعضهم، كان المكان أشبه بالسوق. قال لي الرجل:

عندما كنت أدير عملي، كنت دائماً أنتهج ذلك الموقف، إن الفوز هو الشيء الوحيد المهم. وأعتقد أن ذلك ما جعل عملي ناجحاً.

ما هو العمل الذي كنت تزاوله؟

كنت أقوم بتصدير الآلات الزراعية.

اين كان ذلك، ليس في سيدني؟

- لا، في روكهامبتون.

- وما الذي حل بعملك هذا؟

- لقد امتصاه ... المحاسب وشريكي، وما بقي منه ذهب إلى زوجتي.

- إذن ماذا تنوي أن تفعل؟ لا شك في أنك لن تتركهم يهنأوا بفعلتهم هذه. أتمنى ألا تتبرم من أسئلتي هذه.

- لا.

رأيته يجول ببصره في أنحاء المكان، تتبعت نظراته ورأيت ضابطي شرطة يدخلان إلى المقهى. كانا يحدقان ناحية طاولتنا، ثم تقدما نحونا. كنت موقناً أنهما سوف يقومان بالقبض عليه، وتابعتهما حتى وصلا إلى حيث كنا نجلس. لم يكن هناك أي أحد بالقرب منا. وقال أحد الضابطين:

- لو سمحتما، هل بإمكاننا أخذ الطاولة إذا كنتما قد فرغتما؟ يبدو أن هؤلاء الآسيويين سيبقون هنا طوال الليل.

- بالتأكيد، نحن على وشك أن نغادر الآن.

- عفواً، هلا أسديتما معروفاً لنا؟ هل يمكن أن تبقيا في مكانكما حتى نأتي بطلبنا؟

- بالتأكيد.

ذهب الضابطان إلى أمينة صندوق المقهى التي تجلس خلف طاولة البيع، وأخذا يتبادلان الحديث معها. وقررت أن أجازف، فوجهت كلامي إلى الرجل قائلاً:

- هل ترغب في أن أقلك معي إلى ملبورن؟

- بالتأكيد، إذا لم يكن لديك مانع، هل ستصل إلى هناك الليلة؟

- أجل، إنني سأغادر الآن.

- اسمي باري كومب.

قال ذلك ومد يده إليّ مصافحاً، وأجبته وأنا أصافحه:

- اسمي ميرف، في الحقيقة أنا أقع فريسة للنوم أثناء القيادة دائماً، ولا تزال هناك مسافة مائتي كيلومتر. أعتقد أننا إذا تجاذبنا أطراف الحديث بينما أقود السيارة، ربما سيطرد ذلك النعاس عني.

جاء ضابطا الشرطة إلى الطاولة وشكرانا. وضع باري كيسه في السيارة. أخذت أنظر إليه أتفحصه أكثر، ترى أيمكن الوثوق بهذا الرجل؟ لا شك في أنه يدور في خلده السؤال نفسه عني. كان يبدو لي أن الرجل لا غبار عليه وأن مخاوفي لا أساس لها. لكن في أيامنا هذه ينبغي على المرء أن تكون لديه غريزة متيقظة بشأن هذه الأمور وإلا سوف يضيع في هذا العالم. يجب عليك أن تكون قادراً على الحكم على الناس من خلال نبرة أصواتهم، ومن خلال الطريقة التي يتصرفون بها، وحركات أعينهم، وألا تحكم عليهم من خلال أقوالهم فقط. وبدا لي أنه ليس هناك ثمة حاجة للتخوف منه. وأدركت في آخر الأمر أن أكثر ما أخشاه ليس التعرض للاختطاف أو السرقة أو القتل، بل الوقوع فريسة للنوم خلف المقود والاصطدام بشاحنة والموت. وهذا في تقديري أكثر خطورة من اصطحاب قاتل محترف، أو حتى قاتل لمرة واحدة كصاحبي هذا.

أدرت المحرك، لتطوي السيارة الكمودور الطريق. وبعد أن استقرت السيارة في سرعتها قلت لرفيقي:

- أتعلم؟ إنني أريد الوصول إلى مكتبنا هناك مبكراً قبل الجميع، وقبل أن يغتنم جوني فلاش الفرصة لتدمير المزيد من السجلات أو محو أي ملف.

اقتربت سرعة السيارة من المائة وعشرة، خفضت صوت مشغل الأقراص قليلاً. إن التحدث سيكون الطريقة المثلى لإبقائي يقظاً. قلت لرفيقي:

- ماذا عنك يا باري، أفي عجلة من أمرك للوصول إلى ملبورن أنت أيضاً؟

ضحك ثم قال:

- لا يا سيدي، أنا لست في عجلة من أمري. سأذهب إلى هناك لأحاول بدء حياة جديدة، مدينة جديدة، أناس جدد. لكن أوتعلم ... أشعر أنني بدأت هذه الحياة الجديدة بالفعل ... أنا رجل مختلف الآن، وذلك منذ أن «نكبت».

- لعلك أصبحت أكثر يقظة، وأقل ثقة بالناس، أعتقد أن هذا ما تشعر به الآن.

عدل باري وضعه ومد رجليه، وكان يتحدث بأناة واضحة، كما لو أنه يريد فهم قضية معقدة، واستطرد معقباً على تساؤلي:

- لا، ليس الأمر كذلك تماماً، إن الأمر مختلف ... ما إن اعتدت على ذلك ... فقد كنت دائماً كثير التفكير بالماضي، ماذا حدث في السنة الماضية،

الشهر الماضي، الأسبوع الماضي. وعندما أتوقف عن التفكير بالماضي، أبدأ التفكير في المستقبل، ماذا سيكون حال الأمور في الأسبوع القادم. إلى أي مدى ستبدو الأمور ... هل ستكون جيدة بعد جني مزيد من الأرباح، إلى أي مدى سأكون سعيداً عندما أسدد رهن العقار وهكذا دواليك. في الواقع إنني لا أشعر بأنني سعيد في معظم الأوقات، لقد كنت أحاول نوعاً ما المضي قدماً في الحياة. أتحين الوقت الذي سيشب فيه أطفالي عن الطوق، ومن ثم أترقب الوقت الذي أرزق فيه بأحفاد ... يبدو أن الأمر لا نهاية له ... نعم لا ينتهي. كنت دائماً أتوق لحدوث شيء ما في المستقبل، لم أعش اللحظة أبداً. كنت دائماً في حالة غوص في مكان ما من ذاكرتي.

- أجل، ذلك أمر طبيعي. ينبغي على المرء التخطيط لأموره، كما يجب أن ترجع بتفكيرك إلى الوراء ... إلى الماضي، للتفكير في ما حدث لك في غابر الأيام. كلنا على هذا النحو، نشغل أنفسنا كثيراً للدرجة التي لا نستطيع فيها الاستمتاع بأنفسنا. ولا حل لذلك ... فعلى سبيل المثال أنا الآن في هذه اللحظة أفكر في كيفية العودة إلى سيدني بعد وضع حد لهذه الفوضى.

كان الطريق نظيفاً ومستقيماً والجو لطيفاً. وكنت أعلم أنه ينبغي عليّ أن أحاول تخمين الألاعيب التي ربما يخطط السيد فلاش لمفاجأتي بها، وأن أرسم صورة للطريقة التي أوقف بها هذه الألاعيب في حال وقوعها. مرت دقيقتان قبل أن يقول باري:

إذن في هذه اللحظة بالتحديد ... أنت غير مستمتع بنفسك؟

- بالتأكيد لا، أريد فقط الوصول إلى هناك. هذا هو الأمر الرئيس المهم الذي يشغل بالي الآن.

- صحيح، هكذا كنت أنا، كنت دائماً أنقل نفسي إلى مكان ما، وأنشغل بأمر ما، وأتوقع أن تكون الحياة سهلة في الجانب الآخر.

قال ذلك الكلام وفجأة ضحك، ثم واصل حديثه قائلاً:

- أعتقد أن ذلك بدأ معي في مرحلة الروضة. كنت أتشوق للانتقال إلى المرحلة الدراسية التالية حيث كنت أظن أنها ستكون زاهية جداً.

- أجل، هكذا هي الحياة دائماً، فنحن لا يمكننا عمل شيء حيال ذلك.

- هل فكرت بالموت؟ ألم تفكر يوماً كيف يكون عليه الحال لو مت؟

صعقت لسؤاله المفاجئ، إذ لم تعجبني نبرته. ونظرت إليه باندهاش في جو السيارة المظلم، بدا لي الرجل أشعث، وأنا أنظر إلى وجهه غير الحليق، رجل بلا مأوى، وأجبته بلا مبالاة، وأنا أتوقع منه أن يقدم لي تفسيراً معقولاً لما يرمي إليه:

- أحياناً.

- يبدو لي أنه كلما تقدمنا في العمر، تناقصت أعمارنا بشكل أسرع. ولا ندري كم ساعة تبقت لنا؟

- ساعات؟ ماذا عن عقود؟

ما الذي يرمي إليه هذا الرجل، وهو يسأل: كم ساعة بقيت لنا لنعيشها؟ فقال لي:

- قد تكون عقوداً، ويمكن أن تكون دقائق، من يدري؟

- ماذا تقصد ... ما الذي ترمي إليه؟ أنا لا أحب مثل هذا الحديث، إنه نذير شؤم.

- في الحقيقة إنني لا أريد أن أهدر ما بقي لي من عمر في أمور تافهة، كمشاهدة الإعلانات في التلفزيون. يجب أن تكون هناك أمور أكثر قيمة نقضي فيها أعمارنا بدلاً من الاهتمام بإعلانات ماكدونالد وآخر أنواع الشامبو.

أجل هناك شيء يستحق أن نقضي أعمارنا في التفكير فيه، وهو المال.

ضحك مرة أخرى ثم قال لي:

- أجل، كلنا نحب المال. لا ضير في ذلك. لقد كنت أملك أطناناً من المال، هل تصدق أنني كنت أملك أغلى سيارات المرسيدس؟ لكن ....

ضحك ثم استطرد قائلاً:

والآن كل شيء قد ذهب.

هل تعلم ما هي العبرة من ذلك؟

ماذا في اعتقادك؟

المشكلة تكمن في أنه مهما كان لديك من مال، فأنت تشعر أنك لم تمتلك المال الكافي بعد.

أنا أشك في ذلك. صحيح أن المال يجلب كل شيء، لكنه لا يشترى العافية. بالتأكيد المال يجعلك تدفع أجرة جناح فاخر في مستشفى خاص، لكن كما يقول ألبي جيز، «كيف يمكنك إصلاح قلب محطم؟».

- بإمكان إخصائي قلب في مستشفى سانت فينسنت إصلاحه!

لم يقل شيئاً لبرهة من الوقت، أعتقد أنه أدرك أنني على حق. من الصعب أن يرضى صاحب الأموال بالقدر الذي يمتلكه من مال. وكل ما يهمه هو إخفاء ذلك المال في أماكن عدة. لقد كنت أفكر في فتح حساب في بنك سويسري. وفجأة سألني رفيقي سؤالاً مفاجئاً:

- هل تحب أن أقود السيارة قليلاً؟

- لا، لا، شكراً ... من الأفضل أن أقود أنا.

- أعتقد أنك قد غفوت قليلاً.

ربما كان محقاً، فقلت له موضحاً:

- لقد أغمضت عيني لثوانٍ. أشعر بأنهما أصبحتا ثقيلتين.

بدأت أشعر بالضيق من الطريقة التي اقترح بها توليه القيادة. إنها سيارتي أنا، وأنا الذي تفضلت عليه بإركابه معي، لذلك يجب عليه ألا يتدخل في مثل هكذا أمور. فقلت له:

- اسمع، سوف أخبرك متى أريد منك تولي القيادة.

نعم، بالفعل لقد غفوت فجأة بينما كنت أقود، لكن ذلك كان لثانية فقط. بعد ذلك فكرت أنه ربما يكون أكثر أماناً لو تولى هو القيادة لمدة من الوقت. لكن كيف لي أن أعرف أنه سيقود بأمان لو جلس خلف المقود، قد يكون لا يزال تحت تأثير الخمر، لكن بالرغم من توجسي قلت له:

- أعتقد أنه يمكنك تولي القيادة، بعد... لنقل بعد نصف ساعة، هل لديك مانع؟

- بالتأكيد، لكن إذا شعرت بالنعاس في أي وقت، لا تتردد في إبلاغي.

- حسناً.

فكرت بزوجتي إيريكا، وكنت أتخيل ما تفعله في تلك اللحظة، حيث كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، أعتقد أنها تستعد الآن للنوم. تقوم بإغلاق التلفزيون وتنظف أسنانها. وتضع القطة في غرفة الجلوس، ثم قد تستحم وتضع الكريم على وجهها، ثم تأوي إلى الفراش وترقد على جانبها الأيمن بعد أن تعدل سطح الوسادة المصنوعة من الريش الناعم بيدها كعادتها دوماً، ....

- انتبه!

وفجأة فتحت عيني إلى أقصى حد، وأدركت أننا في الجانب الخطأ من الطريق، وكنا نسير بسرعة 110 كيلومتر، لقد انحرفت إلى جانب الطريق المرصوف بالحصى، واصطدمت السيارة في حركة خاطفة بالحاجز وانزلقت في الحصى مزيلة ثلاثاً أو أربعاً من دعامات الحاجز الحديدية وكادت تهوي في إحدى القنوات، ثم اصطدمت بشجيرات صغيرة قبل أن تعانق بعنف شجرة ضخمة في آخر الأمر. وكنت أرى الشجرة آتية في حركة بطيئة نحوي، ولم يكن في مقدوري فعل أي شيء، كانت الفرامل مضغوطة لأقصى حد، حيث مرت السيارة بحصى ووحل وعشب قبل أن تصطدم بتلك الشجرة الضخمة محدثة صوتاً كصوت الانفجار. شعرت بحزام الأمان يضغطني بقوة، وانفتحت أكياس الهواء محدثة صوتاً كصوت المدفع، وأحسست بألم حاد في مقدم ساقي... توقفت السيارة بزاوية حادة لكنها لم تنقلب... صمت مشغل الأقراص، وكانت مصابيح الإنارة

الأمامية لا تزال مشعلة، ثم صمت كل شيء فجأة، وقطعت الصمت المخيم إذ قلت لرفيقي:

- هل أنت بخير يا باري؟

- هل لديك هاتف جوال؟

- نعم، في مكان ما هنا، أعتقد أنني بخير.

حررت حزام الأمان، ونجحت في الخروج من السيارة بصعوبة، وقلت له:

- اخرج بسرعة من السيارة، ربما تشتعل النار فيها.

درت حول السيارة، إلى الجانب الآخر، ورأيته قد نجح في فتح الباب، فقلت له:

- هيا أسرع.

كان يتلوى في مقعده، فقال:

- لقد انكسرت ساقي يا ميرف، أعتقد أنني في حاجة للمساعدة.

- هل أنت متأكد؟

هذا يعني أنني سوف أمرّ بمتاعب. إذ بإمكانه مقاضاتي، بالنسبة لي سوف يغطيني التأمين، لكن سيكون هناك تحقيق من قبل الشرطة، والله وحده يعلم ما ستؤول إليه الأمور. ندمت جداً لأنني أركبته معي. لو كان واصل التحدث إلي في تلك اللحظة لما وقع الاصطدام. لكن لماذا أركبته معي في الأساس؟ ليتني سمحت له بتولي القيادة. قال:

- نعم، إنها مكسورة. سأخرج الآن لكنني قد أسقط من السيارة، هل يمكنني الاستناد عليك؟

- بالتأكيد، أعتقد أنه من الأفضل لك البقاء في السيارة.

- وماذا عن احتمال اشتعال السيارة؟

- إنها مخاطرة. لكنني لا أشم رائحة أي وقود.

- أعتقد أنه بإمكاني الخروج إذا ساعدتني لأستلقي على هذا العشب.

- حسناً هيا.

قلت ذلك لكني كنت في حالة شديدة من الضيق لما حدث. والآن هاأنذا أتعطل عن الوصول إلى ملبورن، ولا أدري متى سأصل إلى هناك. سوف يتمكن السيد فلاش من التلاعب بالقيودات والمستندات وسيبيع الموجودات. من المرجح أن لديه حساباً في بنك سويسري، سوف يتمكن الحقير من نهب الشركة. بدأت بسحب الرجل إلى العشب، فقال:

حسناً.. أووه.. آه.. إن ذلك مؤلم جداً، هل يمكنك الاتصال بالإسعاف؟

أجل، أعتقد أنه لا يوجد حل ونحن في هذا المكان إلا محاولة الحصول على أي وسيلة وأخذك إلى أقرب مستشفى.

فكرت في إيجاد طريقة ما لإسعافه دون تدخل السلطات. كنت على وشك محاولة الاتصال بالإسعاف من أجله، والاتصال بسيارة أجرة لي وشاحنة لقطر سيارتي، ثم فكرت في إرجاء الأمر حتى الصبح، وتذكرت أنهم سيتقاضون أجرة عالية، إلى جانب أنني لم أعرف بعد إلى أي مكان

يجب أن أرسل السيارة. وينبغي الاتصال بشركة تأمين السيارات. يا إلهي يجب عليّ عمل كثير من الإجراءات. وكان يجب أن أحجز في فندق وإبلاغ مكتب سيدني. كذلك من الأفضل إبلاغ ... قطع باري حبل تفكيري قائلاً:

- هل أنت بخير يا ميرف؟

- نعم. فقط متضايق من هذا العارض!

- انظر يا صاح ... ألقِ نظرة إلى ذلك!

- ماذا؟

- النجوم! انظر إلى تلك النجوم.

كان مستلقياً على قفاه على العشب يشير بيده إلى السماء، وواصل حديثه قائلاً:

- أنت لا ترى نجوماً مثل هذه في المدينة! انظر أليست جميلة؟ كم هي رائعة، يمكنني أن أشم عبير أزهار تتفتح، أوليس الجو منعشاً وبارداً؟ آه انظر! هناك بومة حطت للتو على تلك الشجرة. هل تسمع صوت حفيف الوريقات يدغدغها الريح؟ إنني أشعر بالعشب الناعم يداعب ظهري. أشعر بأنني مفعم بالحياة!

- أنت مجنون، نحن معزولان في هذه الغابة على بعد ثلاثين كيلومترا عن أقرب بلدة، والسيارة مدمرة، وقدمك مكسورة. وسيأخذونك إلى مستشفى ما حيث ستجرى لك عملية. وربما ستمكث هناك أكثر من ثلاثة أسابيع. أما بالنسبة لي فكل شيء تحول إلى كارثة حقيقية، ينتظرني قدر هائل من الإجراءات علي القيام بها مع شركة التأمين،

ناهيك عن مطالباتك لي، والمستشفيات، كما يجب أن أجد مكاناً أقضي فيه ليلتي. ومن المرجح أنني سأتعرض للتحقيق من قبل الشرطة. ووصولي الملح إلى ملبورن من أجل منع فلاش من نهب الشركة، كل ذلك تعطل. اسمع، أود أن أقول لك إنني متضايق لأقصى حد! إنني سعيد لأنني لست في غيبوبة الآن ولم تتكسر قدمي، لكنني لا أمنع نفسي من التفكير في كل الأمور السيئة التي ستتمخض عن هذا الحادث.

- ميرف، سوف تعود يوماً ما بذاكرتك إلى هذه الليلة وتتذكرها.

كان باري يتحدث بصوت رقيق وهادئ وعطوف، كما لو أنه صديق قديم يحاول مساعدتي، وقال مكملاً حديثه:

- سوف تتذكرها، وتتذكر كل الذي حدث، وسوف تحيا هذه اللحظات مرة ثانية في ذاكرتك. إن الحياة تمر من يمينك الآن، وأنت تضيعها. اختبر ما يحدث الآن! إن الأمر يتعلق بأن تكون حاضراً كل لحظة... عشها، تمتع بكل دقيقة. أنت تترك كل شيء يغادر إلى الماضي... لا تترك الحياة تتسرب من بين يديك... عش في اللحظة الحالية، لا في المستقبل، ولا في الماضي. هل تعي ما أقوله؟

- أتقول إنه ينبغي علي أن أفكر فيما يحدث الآن؟

- بل أكثر من ذلك، عش تجربة ما يحدث الآن! إن الأمر يتعلق بأن تكون حاضراً في كل لحظة، تستمتع بكل دقيقة. إنك تدع كل شيء يتجاوزك لأنك تشغل تفكيرك بالغد. لكنك الآن مفعم بالحياة، اليوم، عش ما هو موجود الآن هنا، لأن هذا سيذهب غداً.

- لا يوجد شيء أعيشه! وكما قلت لك نحن منقطعان هنا في هذه الغابة، السيارة تهشمت، وليس هناك شيء يسير على نحو جيد، كل شيء انقلب رأساً على عقب.

رأيت سيارة الإسعاف تقترب، كانت أنوارها تومض. تقدمت من الطريق فلوحت لها بيدي. أوقف رجال الإسعاف السيارة وتقدموا صوبنا يحملون نقالة، وقال أحدهم:

- من الذي جرح؟

وقبل أن أتمكن من قول أي شيء، رد عليهم باري وهو يقول:

- عالجوه هو أولا يا دكتور، أنا أعاني من رجل مكسورة فقط.

ثم بدأ يضحك، وفي الحقيقية لم أفهم النكتة.

3- فتاة السيرك

عندما كنت فتاة صغيرة أعيش في المجر، كنت أعمل في السيرك، علموني الكثير من الحيل، وعلموني أن أنظر في كل مكان، وأن أمارس الكثير من الخدع، أستطيع إخفاء بعض الأشياء في كمي وشعري. وفي أحد الأيام سمعت أبي يقول لي إنه سيكون لي شأن عظيم وسأغدو نجمة كبيرة في السيرك. إلا أن ذلك لم يتحقق. ففي عام 1956 هجم علينا الروس، وغادرنا البلاد وهاجرنا إلى أستراليا. والآن سأخبرك بالحال التي آلت إليها ـ غدوت مجرد عاملة تنظف المحلات. لا عليك، لقد كونت أسرة، وأمتلك الآن بيتاً، ولديّ زوج، ولكنني ما زلت أعمل في المحلات أزاول أعمال التنظيف.

وكان أحد المحلات التي أقوم بتنظيفها يحمل اسم «قبعة الساحرة»، وهو متخصص في بيع ملابس النساء الشابات. كان متجراً صغيراً، يطلقون عليه اسم بوتيك، لأن ذلك التصنيف يبدو أفضل ـ دائماً تكون الأمور الراقية فرنسية الصنع وليست مجرية! ـ كنت أحب الفتاة التي تعمل هناك، وتدعى أوبال، ويعني اسمها الحجارة الكريمة. كانت فتاة طيبة، وكان يحلو لها التحدث معي، تحدثني عن حياتها ووالديها. لا، إنها ليست من المجر، بل فتاة أسترالية، تقول إنها في العشرين من عمرها. آه لو عدت إلى عمر العشرين مرة ثانية.

أمضيت إجازتي في ملبورن، ثم عدت بعد أربعة أسابيع إلى قبعة الساحرة، ولاحظت أن هناك فتاة جديدة، في عمر أوبال نفسه. وتقول

هذه الفتاة إنها تدعى جيرالدين، ذات فتنة تطيح بالعقول، وتبعث الروح في الأموات كما يحلو لابني المراهق وصفها. كنت أنظف وأراقب ما يجري هناك، وعندما كان يأتي مندوبو المبيعات يعرضون بضائعهم من الفساتين والملابس النسائية الأخرى، كانت تتقدم إليهم جيرالدين تسبق أوبال وكانت تداعب هؤلاء الرجال، حتى ولو كانوا متقدمين في العمر، في عمر زوجي مثلاً. كانت تضاحكهم، وتبدي أنوثتها لهم، وكانت تحفظ أسماءهم. كانوا يضحكون ويوزعون الابتسامات في سخاء ويتحدثون ويتحدثون. يعتقدون أنهم محظوظون، لكنني أعتقد أنهم كانوا يرتكبون أخطاء فادحة. كنت أراقب هذه الفتاة، جيرالدين، كانت ذكية جداً، فائقة الذكاء وبارعة، جميلة إلى حد يفوق الوصف. كنت أراقبها أثناء قيامي بأعمال التنظيف، آتي بعد كل يومين أنظف وأراقب. أترى أنني أتمتع بمهارة عدم تفويت أي شيء وملاحظة كل شاردة وواردة في كل مكان، ما زلت أتمتع بهذه الميزات وذلك بفضل تدربي في السيرك، وكان يحلو لأبي وصفي بأن لدي عينين كحبّة البطاطس الناضجة، لا أدري من أين جاء بهذا التشبيه، ربما لأنه كان يعمل في تجارة البطاطس، في الواقع إن لدي عينين تتغلغلان في كل مكان!

أهم شيء لاحظته حتى الآن أن جيرالدين كانت تتمتع بذكاء فائق، كانت تعرف كل شيء، وكانت أوبال المسكينة تبحث عن سعر قطع الملابس في قائمة الأسعار لكي تقدم الحسومات للزبائن وتستخدم الآلة الحاسبة لجمع سعر ثلاث قطع، لكن جيرالدين كانت تقوم بذلك في طرفة عين، دون الاستعانة بالآلة الحاسبة. وما إن يدخل الزبائن حتى تحييهم بأسمائهم، كانت تتذكر اسم كل زبون، حتى إنها كانت تتذكر اسمي، لكنها لم تكن تتحدث معي كثيراً كصديقتنا أوبال. وكل الذي كانت تقوله لي جملتها المشهورة «إنك لم تنظفي خلف البراد!»

وعندما ذهبت في الأسبوع التالي إلى المتجر لاحظت أن الأمور لم تعد كالسابق. انزوت صديقتي أوبال جانباً، على الرغم من أنها كانت تعمل بمثابرة، وجيرالدين هي التي تجلس إلى جانب المديرة السيدة روما. وجيرالدين هي التي تتبادل الهمسات والضحكات معها. كنت كثيراً ما أراها تغيب عن المحل ثم تؤوب تحمل كوبي قهوة وقطعتي كيك لتتقاسمهما مع المديرة.

عدت بعد أسبوعين لأنظف كالمعتاد، يا له من عمل لا ينتهي أبداً، وهكذا يا صديقي أضحت مهنة التنظيف مهنة مدى الحياة بالنسبة لي! لكنني عندما عدت، رأيت جيرالدين تضع شارة على صدرها، تقول إنها أصبحت المديرة. وسألتها مستفسرة:

- أين السيدة روما.

- إنها في إجازة لمدة أسبوع. وأنا أقوم مقامها الآن، وأتوقع منك أن تؤدي عملك بصورة أفضل من السابق. إن السيدة روما تتمتع بقلب لين، إنني ألاحظ أنك تستغلينها. اسمعي، إذا لم تنظفي كما يجب فسوف نبحث عن عاملة أخرى تحل محلك.

وكنت دائماً أحاول أن أكون مخلصة في عملي، فقلت لها:

- ما هي الأشياء التي تريدين مني أن أنظفها بشكل أفضل؟

- أترين هذه الصناديق على الأرض! يجب أن تنقليها إلى الغرفة الخلفية، ثم تنظفي تحتها، بدلاً من المسح حولها كما تفعلين دائماً.

- إنها معبأة بالملابس. ثم إنني عاملة نظافة ولست حمالة.

رأيت عينيها تشتعلان ناراً، إذ ينبغي على عاملة النظافة ألا ترد على التعليمات. اقتربت منا أوبال في تلك اللحظة، وقالت مخاطبة جيرالدين:

- ذلك صحيح يا جيرالدين، يجب إفراغ هذه الصناديق أولاً.

- حسناً، ولِمَ لا يتم نقلها؟ أوبال أوتعتقدين أنه بغياب السيدة روما سأكون متساهلة معك؟

- ليس لدي وقت.

- حسناً، جِدي لذلك وقتاً إذن. وساعدي هذه العاملة قبل أن تنصرف. وأنت أيتها العاملة، تأكدي من تنظيف البراد من الداخل هذه المرة.

إذن هكذا كانت. هل تصدق أن هذه الفتاة ابنة عشرين فقط؟. بدأ يخامرني شعور بالإحباط من العمل في ذلك المحل. ولكن ذات صباح بينما كنت أقوم بتنظيف أرضية المحل خلف منصة المحاسبة، سمعت جيرالدين تتحدث عبر الهاتف، وتحشو بيدها الأخرى فستاناً في حقيبة يدها، كان فستاناً جميلاً محلى بشريط ذهبي يضفي عليه رونقاً خاصاً، ولاحظت بطاقة السعر توضح أن سعره 600 دولار، وعندما فرغت من حشوه في الحقيبة تلفتت ذات اليمين وذات اليسار لترى ما إذا كان أي أحد يراقبها. حسناً، لقد رأتني، لكنها رأتني منهمكة في التنظيف، وهناك شيء آخر: ما أنا إلا مجرد عاملة تنظيف تافهة، ووجودي كعدمه تماماً، أنا لا شيء. امرأة مجرية عجوز كثيرة الشحم ليس إلا. لكنني لست غبية كما تعتقد، يمكنني أن أرى وأسمع: وسمعتها تقول في الهاتف:

- نعم، سوف أحضره اليوم، لكنني أريد الخمسين دولاراً نقداً، ويجب أن تحضرها لي إلى بيتي مساء الأحد. مفهوم؟

ثم أنهت حديثها عبر الهاتف بضحكة غنج. وفي المرة التالية التي ذهبت فيها إلى قبعة الساحرة، رأيت أوبال تعمل وحدها والمتجر يغص بالزبائن، كانت تهرول هنا وهناك، وكان هناك أناس ينتظرون، لكنها كانت وحدها. وعندما هدأت الأمور نوعاً ما اقتربت منها وسألتها:

- أين السيدة روما وأين جيرالدين؟

- السيدة روما أخذت راحة اليوم. أما جيرالدين فقد خرجت لتتغدى مع صديقها ولم ترجع بعد. إنها مواعيد الإغلاق وكنت أتوقع رجوعها ... ها هي الآن قادمة.

ثم التفتت إلى جيرالدين التي ظهرت في تلك اللحظة وهي تدخل من باب المحل، قالت لها بنبرة يبدو عليها الضيق:

- جيرالدين، كان هناك ازدحام، لماذا كل هذا التأخير، ماذا جرى لك؟

- لا شيء، لقد قابلت أحد المشترين، إذن فإن تأخيري يتعلق بالعمل. إلى جانب أنني متأكدة أن بإمكانك التعامل مع الزحام، ويجب ألا تظلي بطيئة لهذه الدرجة! أووه ... لم تعبئي المخزون الجديد بعد! ماذا كنت تفعلين؟ أرى أنك تقصرين في عملك عندما لا يراقبك أحد! أوبال يجب أن تتعلمي أن تكوني أكثر أمانة في عملك.

وهكذا رأيت جيرالدين تغادر المتجر إلى منزلها، بعد أن وقعت في دفتر الانصراف، وبعد أن تأكدت من أنها غادرت، تلصصت على دفتر الانصراف فلاحظت أنها دونت في الدفتر ما يفيد بمواصلتها للعمل حتى

السادسة مساء، يا لعجبي! وكذلك وقعت أوبال في الدفتر أيضاً ودونت أنها عملت حتى السادسة مساء، لكن أوبال واصلت العمل حتى الساعة السابعة وحدها. وبينما كنت أهم بالانصراف، لاحظت أن أوبال تبدو حزينة، فسألتها مستفسرة:

– هل أنت بخير يا أوبال؟

– لا أدري كيف أتصرف. أظن أنها تقوم بأمر ما مع واحد من مندوبي المبيعات، هناك أشياء كثيرة اختفت من المحل، ثم بعد أيام قليلة عادت هذه الأشياء المفقودة إلى الظهور، وأذكر أنني شممت رائحة عطر في بعض الملابس. أعتقد أنها تقوم بتأجير هذه الأشياء خلال عطلات نهاية الأسبوع. لكنني لا أستطيع إبلاغ المديرة، لأنني لا أملك دليلاً، وسوف لن تصدقني المديرة، فالسيدة روما تعتقد أن جير الدين رائعة.

– هل تحبين جيرالدين؟

– أووه نعم، إنها جميلة، وذكية، فخلال هذه المدة القصيرة التي قضتها معنا أصبحت تفهم كل شيء في المحل. وتتذكر كل شيء، كل المصنعين، أسعار التكلفة، أسعار البيع بالتجزئة، تعرف كل شيء! إن والدها محاسب، وعلمها كل ما يتعلق بإدارة المشاريع التجارية. لكن ...

– لكن ماذا؟

– هناك شيء آخر، فهي لا تحبني، فعندما تخاطبني ألاحظ أنها تنظر إلي نظرة غريبة ... إحساسها بالقرف تجاهي، كأنني لا قيمة لي في نظرها، كأنني غبية أو وضيعة. لقد حاولت مراراً أن أداعب الزبائن مثلها لكنني فشلت، لا أفقه في أمور الحسابات، ولا أستطيع تذكر تفاصيل كل شيء

عن القطع، وهذا يجعلني أشعر بالإحباط في كثير من الأحيان ... كأنني حالة ميئوس منها. وأدرك أنني لا يمكنني أن أصبح بارعة أبداً مثل جيرالدين، لكنني أعلم أن بإمكاني العمل بمثابرة أكثر منها، كما أن لدي ضميراً يحاسبني أكثر منها، ويجعلني أكثر صدقاً مع الزبائن.

– ماذا تعنين؟ كيف تكونين أكثر صدقاً مع الزبائن؟

– تقول جيرالدين للزبائن إنهم يبدون أكثر جمالا عندما يجربون الملابس الباهظة الثمن، وحتى ولو لم تكن تناسبهم. وعندما يغادرون المحل، تنعتهم بأقذر النعوت مثل: «أيتها البدينة الغبية أو الدميمة الوجه». وكنت أقول لها: هذا لا يجوز، لكنها كانت تضحك مني.

في المرة القادمة التي أتيت فيها إلى قبعة الساحرة وجدت أن أوبال قد تركت العمل. ورأيت فتاة جديدة، وخرجت جيرالدين مع السيدة روما. وسألت الفتاة الجديدة:

– أين أوبال؟

– لقد ذهبت، فصلوها من العمل.

– إذن أنت جديدة؟

– نعم، في الحقيقة توسطت لي جيرالدين للحصول على هذه الوظيفة.

– هل تعرفينها من قبل؟

– نعم، تعرفت عليها منذ سنة تقريباً. لكنني ... غير متأكدة ما إذا كنت سأرتاح لهذا المكان ...

وقاطعتها جيرالدين منادية:

- سيسيليا، أحضري لنا قهوة.

نظرت الفتاة الجديدة إليّ وأدارت عينيها بامتعاض واضح وردت على جيرالدين:

- لا من فضلك، أشكرك لا أريد قهوة.

مر أسبوع ثم جئت إلى المتجر، كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء، ولدهشتي كانت جيرالدين هناك بمفردها تبدو مجهدة في تنظيم بعض الصناديق ومجموعة من المستندات، وقلت لها من باب إيجاد موضوع لأبدأ به الحوار معها ليس إلا:

- أراك منهمكة في العمل.

- هل لديك شك في ذلك؟

- أين الفتاة الجديدة، ألا تساعدك؟

- رأينا من الأفضل صرفها عن العمل، إنها بطيئة جداً، لا فائدة ترجى منها، إنها لا تريد أن تعمل ... نحن الآن نبحث عن مزيد من العاملين.

- ما الذي جرى لأوبال؟

- صرفناها ... ميئوس منها، كسولة.

- كسولة؟ هذا ليس صحيحاً لقد رأيتها تعمل بجد.

- ماذا تعرفين أنت؟ أنت مجرد عاملة تنظيف وضيعة ليس إلا!

- أنا آسفة، سأنصرف إلى عملي الآن.

مر أسبوع آخر ... وجدت إعلاناً بخط كبير على باب المتجر يقول: «المحل مغلق» ضحكت ثم دخلت وقابلت السيدة روما وقلت لها مستفسرة:

- ماذا حل بكم، لماذا أغلقتم المحل؟

- أغلقنا المحل، لأننا أصبحنا نخسر باستمرار، لم يعد الزبائن يعودون إلينا، لا أدري ما حدث بعد ثلاث سنوات من العمل الناجح.

كانت تتحدث إليّ والدموع تكاد تنهمر من عينيها ... لم تمر إلا لحظات معدودات حتى رأيت جيرالدين قادمة ... عاجلتني تقول وهي تحدق في وجهي بوقاحة:

- أعتقد أنك جئت للتنظيف، أنت مجرد إنسانة قذرة، لا تؤدين عمل التنظيف كما ينبغي، دائماً تتركين المكان متسخاً... ولا تجمعين الصناديق من الطريق، لقد لاحظ الزبائن هذه الأمور ولم يعودوا، لو كنت تؤدين عملك بشكل جيد ...

في تلك اللحظة رأت رجلاً في كامل أناقته آتياً إليها، يحمل بعض الصناديق. تلاشت التقطيبة من وجهها وحلت محلها ابتسامة عريضة مشعة، قالت للرجل:

- غوردون! لا تعلم إلى أي درجة أنا سعيدة لرؤيتك.

لم أكد أصدق، أنها تضحك أمامي الآن، كأن العالم مفعم بالفرح، يا لعجبي... سمعت الرجل يسألها:

- سمعت أنكم أغلقتم المحل؟

أجابته بدلال ظاهر:

- للأسف، لقد خذلنا بعض الناس يا غرودي. هل يمكن أن تجد لي عملاً بديلاً؟

- لا توجد فرص عمل في الوقت الحالي، لكن سأفعل ما بوسعي من أجلك يا جيرالدين.

- أنت رائع كعهدي بك دائماً! إنني حقاً في حاجة لفرصة عمل، فقد حصلت على شقة وسيارة جديدة وعلي إكمال أقساطهما. لم أكن أتوقع أن هذا سوف يحدث، لقد كان كل شيء يسير على ما يرام. أما الآن فكل شيء انقلب رأساً على عقب، أووه آسفة لأنني أثقلت عليك بهمومي.

ثم ضحكت بصوت عالٍ به كثير من الغنج، وكان علي الانصراف لتنظيف دورة المياه. وبعد أسبوع رأيت أوبال تدخل إلى متجر آخر غير بعيد من قبعة الساحرة حيث كانت تعمل سابقاً. قالت إنها وجدت عملاً في المتجر الجديد، كان اسمه سندريلا. سررت لها، قالت لي أيضاً: إن المحل الجديد في حاجة لعاملة تنظيف، وستزكيني لهم. وهكذا ذهبت في اليوم التالي للمقابلة، وحكيت للسيدة فيردانت عن خبرتي العملية، كانت امرأة لطيفة ... أخبرتني أن بإمكاني مباشرة العمل بدءاً من اليوم التالي. فرحت جداً. لكن فيما كنت أهم بالانصراف شاهدت جيرالدين في المحل، شعرت بسخونة لافحة تغشى وجهي. وجدت صعوبة في الاستماع إلى ما تقوله لأوبال في أثناء تحدثي مع السيدة فيردانت، وحاولت التركيز كي أستمع إلى جيرالدين وأراقبها. كانت تبتسم ابتسامتها الخبيثة المعهودة

وهي تتحدث إلى أوبال، سمعتها تعبر لها عن سعادتها لرؤيتها مرة أخرى. وأخبرتها أنها جاءت استجابة للإعلان الذي نشر عن هذه الوظائف.

أنا عاملة تنظيف ... عاملة تنظيف ليس إلا، مهمتي هي أن أبحث دائماً عن أشياء أنظفها، أشياء في مواقعها الصحيحة. ورأيت شارة تعريف بها مشبك حديدي ملقاة على المكتب ... أخذتها وأنا لا أدري ما أنوي فعله بها بالتحديد. وأصدقك القول إن قلبي كان يكسوه شيء من السواد، لأن قلبي كان يدرك ما تفعله يداي، فيصدر الأوامر إليهما لتقوما بهذه الأمور السيئة، أمور التطفل هذه، أمسكت بشارة التعريف بيدي، وعقلي لا يدرك شيئاً، لكن قلبي ويدي كانا يدركان ما سيحدث.

رأيت جيرالدين قادمة نحوي، عرفتني ... فابتدرتني قائلة:

- أووه يا ماري! كيف حالك! يا لها من لحظة رائعة أن أراك مرة أخرى.

قالت ذلك ثم تقدمت نحوي كأننا صديقتان قديمتان، لكن صدى إهانتها ما زال يتردد في دواخلي يوم قالت لي: «ماذا تعرفين، أنت مجرد عاملة تنظيف قذرة».

كانت مديرة المحل تراقبنا في تلك اللحظات، كانت ترى كم تبدو جيرالدين مهذبة ورائعة وهي تخاطب الجميع. فأنا مجرد عاملة تنظيف قذرة... مددت يدي لها، فاقتربت مني أكثر... عانقتها بحرارة تماماً كما كنا نفعل في بودابست إلا أن الفرق أن عناقي الحار لجيرالدين كان مصطنعاً، وامتدت يدي لتضع شارة التعريف في جيب معطفها بخفة، كما علموني في السيرك. واستدرت وقلت مخاطبة السيدة فيردانت:

- بإمكاني مباشرة العمل اليوم إذا لم يكن لديك مانع ....

- رائع! إن غرفة الموظفين في حالة من الفوضى. وكذلك تحتاج غرفة تغيير الملابس إلى تنظيف. هل يمكنك العمل لساعة؟

- نعم، بكل سرور.

ثم استدارت لتخاطب جيرالدين:

- أنت هنا بخصوص الوظيفة، مساعدة مدير؟

- نعم، لقد أعجبت بمتجرك ... إنه عصري!

ابتسمت السيدة فيردانت، ثم دخلت إلى الغرفة تصطحبها جيرالدين لإجراء المقابلة. أما أنا فانصرفت إلى عملي ونظفت وأنا أراقب كل شيء. ما زلت أتمتع بعين فتاة السيرك التي تتفحص كل شيء! لمحت أوبال ... كانت تبدو شاحبة، قلقة، مشوشة الذهن والأفكار. كانت ترى أن جيرالدين ستكون في القريب العاجل مساعدة المديرة. أنا مثل حبة البطاطس الناضجة، لي عينان تمسحان كل شيء ... تتغلغلان في كل مكان... أرى ما أريد رؤيته. وقفت أمام زجاجة عطر فرنسية صغيرة باهظة الثمن موضوعة على مكتب المديرة ... نظفت المكتب وأمسكت بالزجاجة، وضعتها في يدي بحركة سريعة تماماً كما كنت أفعل في السيرك. وانتظرت قليلاً ... كانت تنبعث من داخل الغرفة ضحكات متغنجة. تخيلت الكلمات المعسولة التي تخدر بها جيرالدين المديرة المسكينة. كان قلبي هو الذي يقوم بالتفكير وليس عقلي. قلت لأوبال:

- كيف تحب السيدة فيردانت قهوتها؟

- بالحليب، دون سكر.

تذكرت جيرالدين، كانت دائماً تصرخ في وجهي لأعد لها قهوتها، سوداء سادة مع ست ملاعق سكر. ذهبت إلى غرفة العاملين وأعددت كوبين ووضعتهما في الصينية ... قرعت باب المكتب، جاءني صوت المديرة:

- ادخلي.

- أعتقد أنك في حاجة لبعض القهوة؟

- أوه، لقد فرغنا للتو، أعتقد أن ذلك سيكون رائعاً.

وضعت الصينية على الطاولة ... وكانت عينا حبة البطاطس الناضجة في كل مكان. رأيت حقيبة أوراق صغيرة موضوعة إلى جانب قدمي جيرالدين، شبه مفتوحة، كانت سهلة لتصل إليها فتاة السيرك العجوز، وفي غفلة منهما وبأصابع مدربة وضعت زجاجة العطر داخل الحقيبة. كان قلبي هو الذي يصدر الأوامر. سيكون هذا موضوعاً كبيراً بالنسبة لي لتقديم اعتراف وطلب الغفران في الكنيسة!

خرجت، من غرفة المكتب، نظفت باقي أقسام المتجر. ثم رأيت جيرالدين تخرج من المكتب. كانت عينا أوبال تتابعها ... تراقبها، كان وجهها يبعث على الغثيان، ربما كانت تفكر في البحث عن وظيفة أخرى في مكان آخر بعيداً عن جيرالدين. أما جيرالدين فكانت ابتسامتها واسعة، وتشي تعابير وجهها بأنها تعد الآن مساعدة المديرة الجديدة. لاحظت عيني السيدة فيردانت تتابعها وهي تغادر المحل، ترتسم في وجه كل منهما ابتسامة مجاملة. وفجأة دوى الصوت... ووووو.... ووووو... حدث ذلك

فيما كانت جيرالدين تمر من خلال جهاز كشف المواد المعدنية المثبت بالقرب من باب المحل، فارتسمت على وجهها علامات الارتباك. كانت السيدة فيردانت سريعة في رد فعلها عندما قالت لها:

- من فضلك ارجعي ومري عبر الجهاز مرة أخرى.

كانت جيرالدين في غاية الارتباك. كنت أقف أراقب الوضع من بُعد، كان قلبي يدق بسرعة، كل الأنظار اتجهت في تلك اللحظات صوب جيرالدين. مرت عبر الجهاز مرة أخرى. مزيد من وووووو .... ووووووو. عندها طلبت السيدة فيردانت أن ترى ما بداخل حقيبة جيرالدين. كانت جيرالدين غاضبة، وسمعتها تقول:

- لا بد أن هناك خطأ ما!

لا شك في أنها كانت تشعر أن وظيفتها في خطر، مدت الحقيبة إلى السيدة فيردانت وهي تقول:

- ليس لدي أي شيء هنا، لا بد أن يكون هذا الجهاز به عطل.

أخرجت السيدة فيردانت زجاجة العطر، وقالت:

- ما هذا؟ هل دفعت ثمن هذا العطر؟

قالت جيرالدين وقد بدا عليها الارتباك:

- نعم، بالتأكيد.

كانت أستاذة في الكذب، ثم أردفت قائلة:

- لقد اشتريت هذا بالأمس، من وسط المدينة.

أمعنت السيدة فيردانت في زجاجة العطر، ثم قلبتها وأخذت تنظر إلى أسفل الزجاجة ثم قالت:

- هذه بضاعتنا.

بدأت جيرالدين تفقد أعصابها، وأخذ لون وجهها يتغير، وقالت في غضب شديد:

- لا بد أن هذه مكيدة مدبرة، حيكت لي.

ثم أخذت تنظر في اتجاه أوبال، واستطردت تقول:

- أنت أيتها الحقيرة! أنت التي دبرت هذه المكيدة!

- ماذا؟ أنا لا أفهم كلمة واحدة مما تقولين، لماذا ....

وقاطعتها السيدة فيردانت قائلة:

- أوبال انصرفي ... ساعدي تلك الزبونة وانظري ماذا تريد.

أصدرت توجيهاتها لأوبال، ثم أعادت زجاجة العطر إلى منصة العرض. كنت أقوم بمسح أرضية المحل. عم الصمت المكان لبرهة من الوقت. ثم قطعت السيدة فيردانت ذلك الصمت موجهة كلامها إلى جيرالدين:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تنصرفي، أنا لا أريد تصعيد المشكلة، فقط لا أريد رؤيتك مرة أخرى في هذا المتجر.

- أتحداك، سوف أرفع ضدك قضية، أنا لدي محامٍ، أيتها العجوز الدميمة.

ثم رأيت جيرالدين تتصرف كالمجنونة عبر الجهاز في حركة سريعة، ثم دوى الصوت مرة أخرى... ووووو... وووووو، وغطى صوت الجهاز العالي على باقي شتائمها التي وجهتها للسيدة فيردانت، كنت أعرف أن صدور صوت جهاز كشف المعادن في المرة الثانية بسبب شارة التعريف التي وضعتها خلسة في جيبها وأنها ما تزال قابعة هناك، لكن جيرالدين لم تتوقف في هذه المرة، بل انطلقت كالسهم لا تلوي على شيء توزع شتائمها بسخاء. قلت للمديرة:

- لقد فرغت من التنظيف اليوم، أرجو أن تأذني لي بالانصراف.

- حسناً، هل أنت ذاهبة إلى البيت؟

- ليس بعد، سأعرج أولاً على الكنيسة.

4- معركة عادلة

على الرغم من أنني كنت لا أزال في الثانية عشرة، إلا أنه كانت لدي متاعب جمة مع الجنس اللطيف طوال حياتي. أنا أصغر ابن بين أخوتي، وهذا أمر غير طيب عندما تكون لديك ثلاث أخوات يكبرنك. وكوني الأصغر فقد كنّ دائماً يتشاجرن معي، خاصة عندما كان والدي على قيد الحياة، لأنهن يعتبرنني طفله المدلل.

إن كل ما أريده هو أن يكون لي أب أو أخ يعلمني كيف أقاتل ببسالة عندما أُجبر على الدخول في عراك مع أقراني في الحي أو المدرسة، وأن أتعلم كيف آتي بحركة قفل المطرقة أو تنفيذ الضربات المباغتة باليد اليسرى، حتى خالاتي لم يكن لديهن إلا بنات، ما عدا جيري الذي كانت تنعته والدتي بالمخنث.

عندما كانت أخواتي أو بنات خالاتي يدخلن في عراك معي، كنت أحاول أن أقاتل كما يقاتل الأولاد، ويا له من خطأ كبير!! لم يكن لديهن أي رحمة، ولا يلتزمن بأي قواعد؛ إذ كان كل شيء مباحاً في عرفهن، العض، الخمش، شد الشعر، كل شيء من شأنه أن يعزز معركتهن. وكانت الأخت التي تكبرني مباشرة تدعى أنيتا.

حاولت في مناسبات عدة مقاتلة أنيتا، التي كانت تكبرني بثمانية عشر شهراً فقط، كنت أحاول مقاتلتها كما يقاتل الأولاد، عملاً بوصية أبي الذي قال لي يوماً: «لا ضرب تحت الحزام، لا عض، لا خربشة، لا ركل، فقط ملاكمة نظيفة». لم أكن أصمد كثيراً في أثناء قتالي مع أنيتا، كنت أوجه لكمة يتيمة إلى أي جزء من أجزاء جسمها كيفما اتفق، إلا أنها كانت سريعة في تفاديها للكمتي، ثم تنقض عليّ من تحت ذراعي الممتدة إليها لتغرز أسنانها في أي جزء من لحمي تستطيع الوصول إليه، وأذكر أنها عاجلتني في إحدى المرات بضربة ماكرة في منطقة حساسة من جسمي، تجرعت مرارة آلامها لأكثر من أسبوع.

أما أختاي الأخريان ـ جانيس وماري ـ فقد كانتا أشد فتكاً، وكان يحلو لهما ضربي بالحزام كنوع من التسلية ليس إلا. غير أنه في آخر الأمر بدأت أنيتا ترثي لحالي، ففي إحدى المرات انتحت بي جانباً وعلمتني كيف أقاتل كالبنت، لا قواعد، لا رحمة، فنون شد الشعر، كيف أخمش وأعض، أووه ... رزمة كبيرة من الفنون. وفي المرة التالية التي تشاجرت معي ماري فيها أصابتها الدهشة من تطوري المذهل، وعلى الرغم من أننا دخلنا في بعض المشاجرات بعد ذلك، إلا أنها لم تتشاجر معي أبداً بقصد التسلية كما كان يحلو لها فعل ذلك دوماً هي وأختي جانيس؛ لأنني تعلمت أن أقاتل كالبنات.

سأحكي لك قصة أنيتا عندما أشبعت ولدين علقة ساخنة. إذ كنا متوجهين في طريقنا إلى المنزل معاً، كانت وقتذاك في الثامنة من عمرها، وكانت علاقتنا جيدة في معظم الأحيان. وفي ذلك اليوم، كان جون في انتظاري يتربص بي شراً، إذ كان يزعم أنني كسرت حقيبته المدرسية.

وفي الواقع إنني لم أكن من فعل ذلك، وكنت أعرف الذي قام بتلك الفعلة الخسيسة، كان واحداً من أقراني التلاميذ. وكان جون كالثور في ضخامته. لكن من حسن حظي كانت معي أنيتا في اليوم نفسه الذي أضمر لي فيه السوء، وكان يصحبه صديقه جيسون. وفي الحقيقة فقد ملئت منهما رعباً. فقد كانا دائماً جاهزين ليوسعاني ضرباً، وباستطاعة كل منهما أن يجهز عليّ بمفرده، أمّا عندما يجتمعان معاً لضربي فأصبح في ذلك اليوم مثل اللحمة المفرومة.

قام جون وجيسون باعتراض طريقي عند ناصية الشارع. حاولت تخطيهما، لكنهما تحركا سريعاً ليقفا أمامي ويمنعاني من اجتياز الطريق. أخذ جون يصرخ في وجهي ويكلمني بشأن حقيبته المدرسية. حاولت أن أقنعه بأنني لست الفاعل ولا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وطلبت منه أن يتركني وشأني لأمرّ. لكنني كنت أدرك أنه مع جون وجيسون حتى إذا حاولت أن أنسل بينهما فسوف يقبضان عليّ. كانت أنيتا خلفي مباشرة، لكن المعركة لم تكن معركتها. حتى إنها لم تكن في الفصل الذي ندرس فيه نفسه. وفكّرت في أني إذا جريت محاولاً الهرب منهما، ربما يلحقان الأذى بها. احترت فيما يجب أن أفعله، تقدمت أنيتا من جون وقالت له:

- أرجوك، أرجوك دعنا نمر!

ثم فجأة انخرطت في البكاء ... حسناً كنت أدرك أن هناك شيئاً ما خطأ، لأنها لم تبكِ حتى عندما انكسرت ذراعها. وبدأ كل من جون وجيسون يستهزئان بها قائلين:

ابكِ أيتها الطفلة! ابكِ، ابكِ.

اقتربت أكثر من جون، ولا أدري كيف قامت بذر التراب وبعض الحصى في عينيه مباشرة، وقبل أن يتحرك عاجلته بضربة كاراتيه طار على إثرها في الهواء ثم جذبته إلى وسطها حيث غرزت أظافرها في وجهه، ثم ركلته بحركة قوية في ذقنه. قد تعتقد أن تلقيك ضربة منها في ذقنك شيء لا يدعو للقلق بوصفها بنت، لكنها عندما تقوم بتوجيه ضربتها إليك تحرك قدمها قليلاً فتصيب حافة حذائها عظمة الذقن بقوة. كنت أعرف مدى الألم الذي ينتج عن تلك الضربة، كان أفظع من ألم طبيب الأسنان. ورأيت أنيتا تطيح بجون كأنه طفل صغير، فقذفت به بعد أن أرجحته في نصف دورة وتركته ليرتطم بشدة بالسور. وهكذا كانت نهاية جون سريعة عكس ما توقعت.

أما بالنسبة لجيسون، فقد ماتت ضحكة الاستهزاء على شفتيه. ولم تكن هناك حاجة لأنيتا للهجوم عليه فقد وقف مشدوهاً فاغر الفم، ثم انحنيت أنا وأنيتا على جون نحاول إزالة التراب من عينيه وفمه، وهو يفعل ما بوسعه لكتم صرخة أشبه بالعويل.

لكن جيسون هو من بادر بنعتها بالطفلة الباكية، ورأيته ينقض عليها يضربها على كتفها، كنت متأكداً من أنها ضربة مؤلمة، لكن أنيتا بنت لا تعرف التردد أثناء المعارك، أمسكت بقبضة يده وعضت إصبعه مثل كلب البولدوغ السعران. وما إن أطبقت بأسنانها على إصبعه، حتى امتدت أظافر يدها إلى وجهه وعاثت فيه فساداً، ثم أطلقت إصبعه وانقضت بأسنانها على أذنه، وأخذ جيسون يضج بالعويل ويصرخ وهو يحاول تخليص أذنه من أسنانها المغروزة كأنها أسنان دراكولا مصاص الدماء. ثم فعلت شيئاً

لم أرها فعلته من قبل أبداً، إذ تركت أذنه وأرسلت ضربة موجعة بسيف يدها إلى أنفه، اهتز على أثرها رأسه وتراجع إلى الوراء، وعاجلته بركلة على صدره سقط من فرط قوة الضربة على حقيبته المدرسية، يتنفس بصعوبة يحاول التقاط الهواء كالسمكة، والدم يسيل من أنفه. وفي أقل من دقيقتين فقط أجهزت على الولدين. كان جون يجلس على الأرض، يخشى النهوض، وكانت شفتاه المشقوقتان المتورمتان تنزفان دماً. والدموع تنهمر من عينيه كالمطر. نظر إلى جيسون الذي كان يحاول جاهداً التنفس وهو ممدد على الأرض لا حول له ولا قوة. التفتت أنيتا إليّ بنظرات ذات مغزى كأنها تحاول أن تقول لي: هكذا يجب أن يكون القتال. بعد ذلك سلكنا طريقنا إلى المنزل، مرفوعي الرأس ... يا لها من أخت!

لكنني عندما كبرت لم أكن في حاجة لكي تقاتل أختي من أجلي في معاركي، كنا في مدرستين مختلفتين. ويبدو أن هناك الكثير من المعارك في تلك المرحلة. كانت معركتي الأولى في المرحلة الثانوية التي حاولت فيها أن أبادر بتسديد لكمات سريعة عدة، لكن لكمتين سريعتين من غريمي طُرحت على إثرهما أرضا. وحاولت في المعركة الثانية مصارعة عدوي، لكن المعركة انتهت بي مرتطماً بأحد الجدران. فما كان مني إلا أن عضضت ذراعه وشددت أذنه بقوة، فأرغمته على تركي، وتقدم نحوي مرة أخرى، وكان هناك صمت وترقب بين المتفرجين، لكنني عندما شددت شعره كانت تلك نهاية الأمر. فقد انقض جمهور الطلبة عليّ وهم يصيحون ويصفونني بأوصاف تفيد بأنني أغش في القتال، أمسكوا بي وانهالوا علي ضرباً وركلاً قائلين إنني أقاتل كالبنت! إنني أغش!

شعرت بإهانة عظيمة في المدرسة الثانوية، إذ لا شيء أكثر تحقيراً للنفس من أن يقول لك أحد إنك تقاتل كالبنت، وانتشرت إشاعة عني كانتشار النار في الهشيم، بأنني مخنث لأنني أقاتل مثل البنات. وقررت ألا أقاتل بتلك الطريقة مرة أخرى أبداً مهما حصل لي، إذ من الأفضل أن تتعرض للضرب بدلاً من أن تنعت بالمخنث. يا له من اسم فظيع.

لم أتعلم القتال أبداً، بل تعلمت كيفية الهرب من أرض المعركة، وتعلمت كيف أتحمل الضرب، ولم أحاول أن أتعلم كيف أكيل الصاع صاعين في ساحات القتال، لأنه قد رسخ في عقلي أن الطريقة الوحيدة التي أعرفها هي طريقة قتال البنات، وكل شخص أستشيره كان يستنكر ذلك. فأنت عندما تقاتل يجب أن يكون قتالك عادلاً: لا عض، لا ركل، لا شد شعر ولا ضرب تحت الحزام، فقط ملاكمة أو مصارعة نظيفة.

هكذا سارت الأمور طوال تلك المدة كنت لحماً هشاً، وأعتقد أن الطلبة كانوا يظنون أنني مشروع تمرين على القتال بالنسبة لهم، إذ كان يحلو لكل واحد منهم أن يبدأ أولى تجاربه القتالية معي، ثم بعد ذلك يقاتل شخصاً آخر أقوى مني. كنت أمنحهم ذلك الفوز السهل الذي يعزز ثقتهم بأنفسهم.

وعلى مدى شهرين كنت قد اهتديت إلى طريقة ماكرة للتسلل من المدرسة إلى البيت دون أن يُقبض علي خارج بوابة المدرسة أو عند ناصية الشارع. وهو أن أتعمد تعريض نفسي لعقوبة الاعتقال. وكانت المرة الأولى التي حدث فيها ذلك عندما عثرت أنا وصديقي ألفريد على بعض السجائر وأعواد الثقاب أثناء فسحة الغداء، حيث كانت مخبأة تحت قطعة قرميد، فالتقطها ألفريد ووضعها في حقيبته ينوي تدخين واحدة وهو في

طريقه إلى البيت. وكان قد نشب شجار في ذلك الوقت بيني وبين توني تيرور، حيث كان يريد الاستيلاء على نقود غدائي، وكنت لا أحمل نقوداً للغداء لأنه من الخطر جداً بالنسبة لي أن أحمل نقوداً، إذ من الأفضل أن أتضور جوعاً على أن يستولي أحدهم على نقودي. حاولت أن أشرح له ذلك، لكنه لم يمنحني فرصة، فأبلغني أنه سوف ينتظرني عند نهاية الشارع حتى أخرج من المدرسة. كنت أدرك تماماً ما سوف يحل بي، علقة أخرى. شعرت بالغثيان عندما فكرت بذلك، وأنا موقن أنه سوف ينهال علي بالضرب بلا رحمة، وتلك الجمهرة من الطلبة التافهين سيتجمعون حولنا ويضحكون عليّ. «صيد سهل» هذا ما أخذوا ينعتوني به، كان ذلك أفضل حالاً من نعتي «بالمخنث».

وأثناء الفسحة الأخيرة استبد بي الخوف لدرجة أنني كنت أتصبب عرقاً. ولا أعرف حيلة تنجيني من هذا المأزق. وحتى لو أعطيته نقوداً، فأنا أدرك تماماً أن ذلك سيكون مجرد بداية لمشوار طويل من الابتزاز. استبدت بي الحيرة وبلغ بي اليأس مبلغه. ثم اهتديت أخيراً إلى فكرة، تسللت بهدوء إلى حيث كانت تقبع حقيبة الفريد وفتحتها وأخرجت علبة السجائر وعلبة الثقاب، ووسط ذهول الجميع أشعلت السيجارة في الفصل. وزمجر في الأستاذ كالأسد الضروس قائلاً:

ما الذي تفعله؟ ارمِ هذه السيجارة من يدك.

لا أطيق الانتظار يا سيدي.

أعتقد أنه يمكنك ذلك. سوف تتعرض للاعتقال بعد ظهر اليوم وفق قوانين المدرسة، وكذلك باقي أيام الأسبوع.

حسناً لقد نجحت الحيلة، لكن كان لزاماً علي أن أفكر في حيلة أخرى جديدة كل أسبوع. لا بأس أن تتعرض للاعتقال في المدرسة كل يوم، لأنني كنت دائماً أحب إنجاز واجبي المدرسي أو استذكار دروسي، والشيء الوحيد الذي يجب أن أتأكد منه في هذا الشأن هو ألا أتعرض للاعتقال في اليوم نفسه الذي يعتقل فيه توني تيرور.

لكن يبدو أنه بعد مرور بضعة أسابيع فقد توني اهتمامه بي، وظننت أن بإمكاني إراحة نفسي من الاعتقال لمدة من الوقت، بعد أن أخذ كل المعلمين فكرة عني مفادها أنني طالب غير قابل للإصلاح. وكان يعني ذلك تكليفي بمزيد من الواجبات المدرسية ومزيداً من الاعتقال. وبدأ بعض الطلبة يظنون أنني أصبحت مشاغباً لكن بطريقة مجنونة، إذ لماذا أقوم بفعل أمور غبية في الفصل مثل قذف قطعة ورق مكورة من الصف الخلفي في اتجاه السبورة عندما يكون المعلم مواجهاً لي وظهره للسبورة؟ أو أنادي المعلم الذكر بمدام؟

وعلى مدى أسبوعين لم يكن هناك اعتقال، فقد عادت الحياة إلى طبيعتها. نعم ولكنني عندما حاولت التأكد من ذلك بنفسي، وقفت مرتين في الساحة المخصصة للرياضة في المدرسة، صادفت في المرة الأولى طالباً جديداً كان يحاول إثبات جاهزيته للانضمام لزمرة من الطلبة. وفي المرة الأخرى صادفت فريد الذي كان قد تعرض للإهانة من قبل طالب من الفصول الدنيا فأراد تفريغ شحنة إهانته في أنا. فطرحني أرضاً بعد بضعة لكمات كان قد وجهها إليّ وصدرت مني صرخات وعويل بصوتٍ عالٍ.

بدا لي أن كل العالم بات مفعماً بالألق في ظهر يوم الجمعة، فقد حانت العطلة الأسبوعية، وسوف أذهب إلى البيت مبكراً، وسأقود دراجتي إلى وسط المدينة وأتجول بها في الطرقات. وخططت لإنجاز كثير من الأعمال في تلك العطلة.

ما من شك في أن توني تيرور يشكل هاجساً بل بعبعاً بالنسبة لي، وخشيت من ملاحقته لي. لكن كانت لي طريقة خاصة تجعلني أول من يغادر المدرسة. كنت أخرج أولاً من خلال البوابة ثم أركض إلى محطة القطار، وقد بدأت تنفيذ هذه الحيلة منذ يوم الجمعة الماضي، كنت أخبر الجميع بأنه ينبغي عليّ اللحاق بالقطار. لكنني لم يحدث أن لحقت بالقطار أبداً، لأن القطار كان يغادر قبل خمس دقائق من وصولي إلى المحطة.

لكن في يوم الجمعة التالية بعد أن أقلعت عن تمثيل لعبة الاعتقال، وجدت توني في انتظاري. لم يكن توني فقط بل معه ثلاثة من زملائه. أحاطوا بي، كان توني يسير إلى جواري وواحد أمامي والآخر خلفي، وتحدث معي توني في طريقنا إلى المحطة، وابتدرني قائلاً:

- لم تُعِد إليّ تلك النقود التي استدنتها مني.

- ماذا ... أي نقود؟

- هل نسيت؟ وعدك لي! بأنك سوف تدفع لي شيئاً كل يوم، أتتذكر؟

- لا.

حاول أن تتذكر.

قال ذلك وجذبني من ياقة قميصي، وهزني بقوة ثم قال من بين أسنانه:

- أيها المغفل الغبي.

- أين نحن ذاهبون؟

كان توني يسحبني بقوة إلى جانب الطريق، أخذوني إلى الساحة التي تقع خلف قاعة المدينة، ولدهشتي كان هناك حشد غفير من الطلبة في انتظارنا، وجوههم مألوفة، كانوا كما لو أنهم دفعوا نقوداً ليشاهدوا مباراة، كانت الغالبية العظمى منهم تجلس على العشب، في شكل دائرة. وقد فسحوا مساحة واسعة في وسط الدائرة بالكاد تسعني أنا وتوني. دفعني توني إلى الأمام ... إلى وسط الدائرة، كان الكل ينتظر في صمت وترقب ... ينظرون إليّ، ثم قذف توني بحقيبته بحركة بهلوانية خلفه وهو يبتسم في وجهي، وما أدراك ما تلك الابتسامة. كنت أرتجف رعباً، أشبه بالمشلول، في انتظار العلقة التي لن أنساها طوال العمر، بل الأسوأ من ذلك أن العلقة ستكون أمام كل زملاء فصلي.

أخرج توني سيجارة وأشعلها، وفي الحقيقة قدم لي واحدة. وفكرت أنني إذا قمت بتدخينها ببطء شديد، لعل ذلك سيستغرق نصف ساعة، لكنه كأنه قرأ أفكاري، فابتسم وسحب يده في الوقت الذي كادت تصل يدي إلى السيجارة. بدأ الحشد يتململ بعد أن جذب حوالي سبعة أنفاس طويلة ... بطيئة ... من السيجارة بتلذذ مصطنع، وأخذ الحشد يصيح: هيا تعاركوا! تعاركوا! تعاركوا!

التفت توني إليهم مبتسماً، وهو يقذف بالسيجارة في اتجاههم بحركة غريبة، ثم رفع يده وقال موجهاً كلامه إليّ وما تزال تلك الابتسامة الخبيثة الماكرة ترتسم على شفتيه:

- تخلص من حقيبتك.

- لماذا؟

كنت أتصنع الغباء وقد بلغ بي الهلع مبلغه. نظرت إلى الحشد، كانوا متأهبين لمشاهدة معركة عظيمة، وأنا أدرك أنهم لن يرضوا بأن أنتهي مطروحاً على الأرض ... يريدون أكثر من ذلك. نظرت إلى توني، وتعجبت كيف يعتبرون هذا نزالا عادلا ... كان أطول مني بكثير، ضخماً، وقوته تعادل قوتي مرتين، وكان خبيراً في القتال والفوز به، وتقول الإشاعات إنه لم يخسر نزالاً قط، أما أنا، أنا لا شيء بالنسبة له ... مجرد «صيد سهل»، شخص رعديد، لا يستطيع حتى لعب كرة القدم دون أن يدفع إليها دفعاً. ويقولون: نزال عادل ... يا لعجبي ... يا له من نزال عادل! وقال لي مزمجراً في غضب:

- قلت لك: تخلص منها أيها الحقير.

كنت أقف بلا حماية، يداي إلى جانبي، تقدم في اتجاهي ودفعني بإصبع واحدة على صدري، إصبع واحدة فقط. ترنحت إلى الوراء قليلاً وأنا أكاد أموت هلعاً، وسمعت صياحاً وهتافاً صاخباً من الحشد. تقدم توني ناحيتي مرة أخرى ولكمني في الجانب الأيسر من فكي ... ارتفعت يداي إلى أعلى لكنهما كانتا متأخرتين ... ترنحت بشدة إلى الوراء، حاولت أن ألكمه، لكنني شعرت بنفسي أبدل بقدمي في الهواء إثر حركة خاطفة منه

كانت كلمح البرق انتهت بي معانقاً الجدار المجاور. تقدم نحوي مرة أخرى وضربني على بطني ... انحنيت أتلوى من الألم، متمنياً لو يقبل هزيمتي عند هذا الحد، لكن يبدو أن الحشد قد خاب ظنهم ... فهم لا يرضون بهذه النهاية السريعة، يريدون نزالاً من خمس عشرة جولة، وليس نزالاً ينتهي بالضربة القاضية في الجولة الأولى! كانوا يصيحون بحماس... اقضِ عليه!... أنهه!... رأيت حذاءه يقترب مني، كان ذلك كل ما استطعت رؤيته وأنا منكفئ على وجهي أنظر إلى الأسفل.

وفجأة شعرت بنفسي أنهض على رجلي، انتشلني إلى أعلى ممسكاً بي من ياقة قميصي، ثم رفعني عالياً، ودفعني وأنا معلق في الهواء إلى الجدار، ثم ضربني في أنفي، وانهالت علي ضرباته الموجعة مرة أخرى وكانت هذه المرة في عيني، ورفعني وفي الوقت نفسه كان يضغط بي على الجدار بيده اليسرى. وكنت أسائل نفسي ما إذا كان هذا يمثل جزءًا من نزال عادل، وفجأة تحول هذا النزال العادل إلى جنون. لقد ذهلت عندما انهالت عليّ ضرباته المتلاحقة بشكل أسرع وأسرع على فمي... صدري ... وجهي... وكنت أشعر بقلبي يدق باصطخاب، وفجأة خطر لي أنه ربما يريد أن يقتلني فعلاً... انتقل وجهي من مرحلة الألم الطاغي إلى مرحلة الخدر الشامل، كانت الدماء تسيل في تضاريسه في كل مكان. وكنت أسمع في الخلفية صيحات وهدير الحشد كالشلال الهادر.

أصبحت الآن في حالة أشبه بالحلم، غشتني فجأة لوثة طاغية من الجنون، كان كما لو قرّر جسدي أن يقاتل بالطريقة الوحيدة التي يعرفها ... يقاتل كالبنت. وكان ذلك الإلهام يقبع في الأغوار السحيقة من عقلي الباطن، بالرغم من أنني لم أجرب قط الحيل القتالية التي علمتنيها أنيتا منذ سنين، وقد اعتقدت أنها أصبحت نسياً منسياً.

قاتل قتالاً عادلاً ... كان يقولها لي أبي كما يقولها كل الأولاد. أن أقاتل كالأولاد. لكن أين العدل في هذا الجحيم الذي أصطلي بأواره الآن، مع هذا الوحش الثور الذي يكاد يجهز عليّ والذي لا تزال يداه تضغطان بي على الجدار؟

وفجأة استجمعت كل قواي وركلته بمقدمة حذائي بقوة على ساقه، فما كان منه إلا أن أرخى قبضته وتركني أسقط على الأرض، ثم تراجع قليلاً وهو يحاول التقاط الهواء بصعوبة من فرط ركلتي المؤلمة. وكنت موقناً أنه سوف يقتلني لا محالة ما لم أقاتله. حاولت أن أهجم عليه كاللبؤة مستهدفاً عينيه بأظافري ... قبض على معصمي، لكنني تذكرت في تلك اللحظات أنني سبق وأن عضضته في أذنه في نزال سابق جرى بيني وبينه. وفجأة أخذ يصرخ ويولول محاولاً دفعي، كنت أرتكز بشكل جيد على قدمي، وأسناني تطبق على أذنه ... سقطنا معاً على الأرض، وكاد أن يجثم عليّ بجسده الضخم. وفي لحظات استطاع أن يعمل قبضته اليسرى في حلقومي محاولاً إيقاف انسياب تنفسي، وضربني بقبضته اليمنى الضخمة على وجهي، وكنت أستطيع رؤية قبضته آتية إلى وجهي كحافلة كبيرة مسرعة، فهبطت يده على عيني التي كانت بها غشاوة أصلاً. اهتز رأسي وشعرت به يدور ويدور، ولكن بإرادة عجيبة لا قبل لي بها امتدت قبضة يدي اليمنى لتلتقط حجراً في حجم كرة التنس.

سأكون كاذبا إذا قلت لك إنني فكرت في تنفيذ كل هذه الأمور، إن ما بدر مني كان دون تفكير مسبق، وإنني أعزو ذلك إلى حالة اليأس التي ألمّت بي، كنت مثل جرذ على وشك الغرق، تشبثت يدي بالحجر ... القشة. استجمعت كل قوتي وضربته في مرفقه الأيسر الذي كاد يخنقني به، ففقد توازنه وسقط

في اتجاهي، وانفغر فمه في ألم فظيع، وبدا لي كما لو أن الضربة سحقت عظام مرفقه. وفيما بدأ يتهاوى في اتجاهي، ضربته مرة أخرى بالحجر، هذه المرة في رأسه بالقرب من صدغه... ليلة هنيئة يا توني.

أغمي عليه، وسقط تقريباً فوقي تماماً، تلويت وجررت نفسي جراً حتى استطعت تحرير جسدي من ثقله. كان ممدداً على الأرض فيما أخذ الحشد المتحلق حولنا يحملق فينا، وقفوا كلهم يصرخون. لأن توني تيرور انتابته حالة تشنج أشبه ما تكون بنوبة الصرع، تراجعت إلى الوراء ووقفت أنظر إليه في ذهول، أسائل نفسي إن كان سيموت، وأنا أشعر أنني نجوت من موت محقق على يده. كانت هذه هي المرة الثانية التي أرى فيها شخصاً في حالة تشنج، ويا له من أمر مروّع.

بدت حالته سيئة جداً. وأخذ لون وجهه يتحول إلى الزرقة، انسحب بعض الأولاد بهدوء، والبعض الآخر أخذوا يجرون وهم يصيحون ... لقد قتله، لقد قتله بصخرة. هربوا مخافة أن يتورطوا في الجريمة. الكل انصرف ما عدا زميله أنجيلو الذي وقف كالأبله يحملق فيه في فزع، وقال يتهمني:

– قتلته!

لم أقل شيئاً، فقط أخذت نفساً طويلاً، محاولاً أن أوقف النزيف من أنفي، ثم قال:

– سوف أذهب لإحضار طبيب.

– من أين؟ ماذا عن استدعاء الإسعاف؟

– سيكون قد مات.

لكنه لم يمت. بدأت تشنجاته تنحسر شيئاً فشيئاً فيما كنا ننظر إليه. ثم أخذ لون وجهه يتحول إلى اللون القرمزي بالتدريج في الوقت الذي بدأ يتنفس فيه مرة أخرى.

وعندما أيقنت أنه حي يرزق بدأت أسائل نفسي، ماذا لو كان قد هشّمني بضرباته تلك ثم قتلني. نظرت إليه، إنه لا يزال مصاباً بالدوار، حتى بعد أن تمكن من الجلوس. كان يبدو أنه لا يعرف أين هو أو ماذا حدث له. حبست أنفاسي في تلك اللحظة، وأدركت أن تلك هي اللحظة المناسبة بالنسبة لي للانصراف. التقطت حقيبتي المدرسية، والتفتّ إلى أنجيلو وقلت له وأنا أهم بالمغادرة:

– سيكون بخير.

لم أعرف أي شيء آخر أقوله، وفيما أخذت أمشي مبتعداً من مسرح المعركة، هتف بي أنجيلو قائلاً:

– إنك تقاتل كالبنت!

– نعم، بالفعل، أتدري، إنني لا أهتم بعد الآن بأي شيء، كل ما يهمني أنني ما زلت حياً.

كنت أتمنى أن أستطيع القول إن الجميع عاملوني باحترام بعد تلك المعركة، لكن ذلك لم يحدث أبداً. فقد انتشر خبر في وقت وجيز عم كل المدرسة بأنني أوشكت أن أقضي على توني تيرور، وأنني قاتلته بطريقة غير نظيفة، قاتلته مثل البنت. وقالوا عني إنني عضضته وضربته بصخرة على صدغه، والبعض منهم يصفني بأنني مجنون خطير لأنني هشمت

مرفق توني بالصخرة. لكن لم ينازلني أي واحد منهم طيلة الأيام التي قضيتها معهم في المدرسة الثانوية بعد ذلك النزال. وكلما سألني أي شخص، أعترف وأقول له مباشرة في وجهه:

– نعم، إنني أقاتل كالبنت: قتال بلا قوانين!

5- الذكريات

عندما أُحلت إلى التقاعد من المنشأة في الخامسة والخمسين من عمري، مكثت في البيت ممنياً نفسي بأن ذلك إيذان ببدء مرحلة سأحظى فيها براحة تامة طوال ما تبقى لي من عمر في حياتي. لكن كلا، يبدو أن الحظ لم يحالفني بعد. فعلى الرغم من أن كل أبنائي كبروا ورُزق كل واحد منهم بأطفال، إلا أن ذلك لم يثنهم عن التعريج على البيت القديم لإصلاح جذاذة عشب، أو طلاء مقطورة بمرشة الطلاء.

أما مارج فلم ترحمني أبداً. فما دمت موجوداً في البيت، فهي دائماً تبتكر لي أعمالاً لا نهاية ولا حصر لها في كل مكان في البيت وفنائه: ستائر تحتاج لإصلاح، مِزراب يحتاج لإعادة طلاء، نوافذ أصبحت عاصية بفعل الزمن وتحتاج لتزييت، سلم يحتاج لإحكام تربيط صواميل، آلاف من الصور القديمة تحتاج إلى ترتيب، أثاث في حاجة إلى صنفرة وطلاء. أعمال لا تنتهي أبداً. ثم هناك تلك الحلقات الدراسية التي تدور حول: كيف تدخر أموالك من أجل المستقبل ... كيف تدخر بعض الأموال من أجل مستقبل أولادك ... كيف تدخر بعض الأموال من أجل مستقبل أحفادك. عدد لا حصر له من الحلقات الدراسية، عروض لمداخيل سنوية مدى الحياة، فوائد ثابتة مقابل فوائد متغيرة، استثمار في الممتلكات، أسواق عبر البحار، تأثير تذبذب أسعار النفط على مؤشر نيكي العجيب، والكثير المثير. وطبعاً كنت إذا أصبت بالقرف من كل هذه القائمة الطويلة، كنت أذهب إلى محاضرة تتناول: ظهور النبوءة في الشرق الأوسط!

أظن أن حياتي تحولت إلى الأسوأ مقارنة بأيام عملي في المنشأة. كان ممنوعاً عليّ مشاهدة التلفاز خلال النهار أو تناول شراب قبل العشاء، وحيث إن كل أصدقائي لا يزالون يواصلون عملهم، لذلك فلا مفر من أن أقاد عبر الأسواق، أدفع عربة مارج كأننا ما زلنا زوجين متزوجين حديثاً. ثم تأتي مبيعات نهاية الشهر حيث التخفيضات، وملاحقة السلع المخفضة كلما سمعنا عن افتتاح محلات جديدة، ومبيعات الجملة، كنا نشتري ملابس وألعاباً لأحفادنا.

كانت مارج تلح عليّ كثيراً، صبح مساء لزيارة المزرعة القديمة لقضاء شهر هناك. إذ لم أحظ بزيارة المزرعة منذ أن غادرتها، وكان ذلك قبل أربعين عاماً. فنحن بعيدون جداً عن الغرب الأسترالي، وكنت قد فكرت كثيراً في هذه الزيارة، ولكن كثرة المشاغل حالت دون ذلك. وما زال أخي الأصغر يعيش هناك، وبالرغم من أنه زارنا ثلاث مرات خلال أربعين عاماً إلا أنني لم أرد له زيارة واحدة.

لقد ترعرعت في هذه المزرعة التي تقع في مكان قصي في غربي أستراليا، بالقرب من بروم. كنا أربعة إخوة، الكل رحل منها ما عدا أصغرنا، روب. بقي هناك وكان يرعى والدتي حتى توفيت. وعلى الرغم من أنه تزوج منذ سنوات خلت، ورزق بثلاثة أبناء، إلا أنه لم تسنح لي الفرصة لمقابلة زوجته أو أبنائه حتى الآن.

تذكرت الأيام الخوالي الجميلة. وعلى الرغم من أن روب يصغرني بعامين، فقد كان ميالاً للمزاح، وكثيراً ما يدبر المقالب. فهو الذي كان يضع الضفادع داخل بلوزات البنات، وهو الذي كان يوصل صنبور البيرة بصنبور المياه في الدور السفلي للحانة، ويضع صخوراً كبيرة تحت عجلات سيارة الشرطة. يا لها من أيام، كانت مفعمة بالمرح والسعادة.

كانت المدرسة عبارة عن مقامرة، وكنا نعمل في المزرعة، نصطاد الغربان ونسبح في المستنقع القريب، وكانت أمسية أيام الجمع مخصصة للرقص، وليالي السبت للتصوير. صحيح أنه لم يكن لدينا تلفاز ولا مكيفات هواء، ولا فيديو، ولا أفران مايكروويف، لكن الحياة كانت بسيطة وسهلة وغير معقدة. وكان الناس يصنعون لحظات لهوهم الجميلة بأنفسهم، ويستمتعون بأنفسهم دون تكلف أو عناء يذكر. واصلت السيارة الكمودور طريقها تنهب الإسفلت نهباً بسرعة 110 كيلومتر في الساعة، ومكيف الهواء في السيارة على العالي، والزجاج مغلق، ثم أخذت تتهادى عبر الطريق الترابي نحو المزرعة.

كنت أفكر فيما آلت إليه المزرعة وكيف تبدو الآن، لا بد أن أموراً كثيرة قد تغيرت على مدى الأربعين عاماً الأخيرة. لقد أخبرنا روب في إحدى المرات أنه سوف يتخلص من القطيع، إلا أنني لم أسمع عن هذا الأمر مرة أخرى أبداً. ومن يدري ربما تخلص منه بالفعل؟ وبينما أخذت أقترب أكثر وأكثر صوب المزرعة، بدأت أتساءل عما إذا كانت المزرعة قد فقدت رونقها وأصالتها بسبب التطور. هل يعيشون في عالم أجهزة الفيديو والتلفاز وألعاب الكمبيوتر والبيتزا المجمدة؟ ... يتحكم فيهم الوقت. لم تكن الأمور على هذا النحو حسبما أذكر، تذكرت الحياة البسيطة، الطمأنينة وراحة البال والهدوء والسكينة التي كانت تسود المزرعة، لا ضجيج ولا إزعاج، فقط جيران ودودون على استعداد تام دائماً لتقديم يد العون، هكذا كانت تسير دفة الحياة في الزمن الجميل عندما كان الناس بسيطين.

حينما وصلنا إلى المزرعة كان الوقت غسقاً. وفيما أخذت السيارة تهتز وتتراقص عبر الطريق الوعر، كان المنظر يبدو تماماً مثل منظر المكان عندما سلكت هذا الطريق قبل أربعين عاماً عندما غادرت المزرعة قاصداً

سيدني أو هكذا خُيِّل إليّ، ما عدا بعض الاختلافات البسيطة التي تتمثل في أن حال البيت قد تردى قليلاً، ويحتاج إلى إعادة طلاء، كما أن المدخنة تبدو معوجة، ومفصلات البوابة الرئيسة مكسورة، وكان البيت يبدو كما لو أنه قد هُجر منذ مدة طويلة. ترجلت من السيارة، ولفحتني سخونة شمس الظهيرة وهيّج الغبار الذي أثارته السيارة رئتي فسعلت.

كان روب يجلس على مقدمة سيارته البورش في انتظاري، قبعته تميل إلى الوراء كثيراً. وكان يرتدي ملابس متسخة وشبه بالية. هتفت فيه قائلاً:

- كيف الحال، أنا سعيد لرؤيتك، أين سوزان والأولاد؟

- آه، آسف بول، كان ينبغي أن أخبرك، لقد ذهبت منذ خمس سنوات، لا أستطيع احتمال العيش هنا أكثر من ذلك. إن الجو هنا حار جداً ومغبرّ.

- والأولاد، أين هم؟

- كلهم ذهبوا إلى بيرث، لقد تركتني وهربت مع أحد المحاسبين.

- أنا آسف لسماع ذلك روب، لكن كان يجب أن تخبرني، كنت سأتفهم الأمر.

- لم أرد أن ترثى لحالي. أتحب كوباً من عصير الليمونادة مُعداً في البيت؟

- بالتأكيد.

سكب لي عصيراً من إبريق كان موضوعاً إلى جانبه. حاولت ألا أجعله ينتبه إلى أنني لاحظت ذبابتين ميتتين كانتا طافيتين في الإبريق، ثم قلت:

- ما هي مشاريعك المستقبلية؟

- لقد تركت كل شيء، لا نفع من العمل في المناجم. لأسباب تتعلق باتفاقية الجات والسوق الأوروبية المشتركة، لا تسألني كيف. إنني أفكر بالعودة مرة أخرى للقطيع والحمير، لكن المشكلة تكمن في الشاحنة الصغيرة.

- تبدو المزرعة على الحالة نفسها التي تركتها عليها.

- لقد اعتنيت بها، حصلت على ثلاجة جديدة ماركة كيرو في أواخر الستينيات، لكنها تعطلت، لذلك أستخدم الآن حافظة ثلج.

- ماذا أضفت إلى هذه الليمونادة؟

- أعددتها من الليمون الطازج، قطفته من المزرعة ومن ماء البئر بالإضافة إلى ملعقة عسل نحل.

- ربما كنت غير معتاد على هذه المياه، هل لي في جعة؟

- لا توجد، لا أتعاطاها؛ لأنها ستكون حارة على كل حال. لا أملك براداً، أترى؟ ليس لدينا كهرباء هنا، لكن لا تقلق، أنا لا أهتم كثيراً بهذه الأمور، تماماً كما عشنا طفولتنا هنا.

وفجأة شعرت بالاشتياق إلى سوزان، ثم قلت وأنا أحاول ضرب ذبابة مزعجة بيدي:

- هذا الذباب اللعين، من أين يأتي؟ لا أطيقه. كيف تتركه يزحف على وجهك ولا تحرك ساكناً؟ انظر هناك ثلاث ذبابات في كوبك. والآن هذا الناموس اللعين يلسعني. من أين يأتي هو الآخر؟

- أنّى لي أن أعرف؟ لكن أعتقد أن مصدره الخزان، فأنا لم أستخدمه منذ أن تلوثت مياهه بمادة البي سي بي.

- ماذا! هذا من أخطر أنواع السموم، كيف حدث ذلك؟

- سبق أن زارني عدد من الأشخاص قبل مدة وقالوا لي إنهم يرغبون في دفن بعض الكيماويات الخاصة ببعض المحولات. وقالوا إنهم سيدفعون لي مائتي دولار، وهكذا حفروا حفرة كبيرة ورأيتهم يطمرون فيها بعض المواد. وفيما بعد عندما هطلت الأمطار وغسلت مكان الحفرة، جرفت الكيماويات إلى الخزان، فتسبب ذلك في قتل كل القطيع. ثم جاء بعض العلماء وقالوا لي إن هذه المادة هي مادة البي سي بي، ومنذ ذلك الحين لم يشرب أي شخص من مياه الخزان أبداً، لكن أعتقد أن آثار هذه السموم ستزول بعد مدة من الزمن.

- ولهذا السبب تشرب من البئر؟

- أجل، أنا أتعجب لماذا تتضايق من الذباب والناموس، لا بد أن حياة المدينة جعلتك ناعماً!

تجاهلت ما قاله وقلت:

- لماذا لا تُركب منخلاً سلكياً في كل المنافذ لمنع دخول الحشرات، إنه رخيص الثمن.

- لا داعي لذلك؛ لأنني أقضي معظم يومي خارج البيت، لقد تكيفت مع هذه الحشرات.

- يجب أن تتزوج مرة أخرى يا روب. ستصاب بالجنون وأنت تعيش في هذه العزلة.

- أوه، أي امرأة تقبل العيش هنا؟ كلهن أصبحن ناعمات في هذا الزمن، مثلك تماماً.

- أنا؟ أنا ولدت هنا. لأنني لا أحتمل زحف الذباب في فمي، أو لعدم استساغتي لهذا الماء الأسمر اللون، تعتقد أنني أصبحت ناعماً؟

- لا عليك. دعنا نتناول عشاءنا. لديّ دجاجة رائعة قمت باختيارها خصيصاً لك، تعال معي نفترسها.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حظيرة الدواجن.

- هل تعني أنها لا تزال حية؟

- بالتأكيد، لو ذبحتها ونتفت ريشها هذا الصباح لأصبحت في خبر كان.

- لكن ذبحها وتنظيفها وطبخها سيستغرق وقتاً.

- ماذا تريد يا بول؟ قطع دجاج كنتاكي تعد لك في دقيقتين؟ لدينا الليل بطوله. ليس لدينا شيء آخر نفعله. أنا هنا أقوم باصطياد وذبح ما آكله. هكذا تسير الأمور في المزرعة، هل نسيت؟ هذا ما نسميه طهو البيت، ألا تتذكر، هذا ما كنت تتحدث عنه دائماً في رسائلك.

- أجل، أعتقد أنه ربما ينسى المرء في المدينة أن قطع الدجاج كانت تنتمي يوماً ما إلى مخلوق حي! ماذا لدينا أيضاً للعشاء؟

- فقط بضعة بيضات مسلوقة.

- حسناً، هيا بنا ننجز ذلك.

كانت المهمة مروّعة ... مطاردة الدجاجة المسكينة المرعوبة ... ذبحها ... نتفها ... تشريحها ثم طبخها. إن مارج معها ألف حق عندما تشتري الدجاج المجمد. ثم بعد ذلك تأتي مرحلة إشعال الموقد الذي يعمل بالحطب، وقد حوّلت السخونة المنبعثة منه المطبخ إلى بيئة لا تطاق. وإنني لأتعجب كيف تحملت والدتي ذلك كل تلك السنوات من عمرها. كنت أجلس مع روب في الشرفة على ضوء المصباح الذي يعمل بالكيروسين، فقلت له:

- لماذا لا تستخدم مولداً يعمل بالديزل؟ فتحصل على طاقة كهربائية تشغل لك الثلاجة والتلفاز و.....

- لا تقل لي إنك اشتقت إلى التلفاز الآن ظننت أن هذه الأشياء هي التي جعلتك تأتي إلى هنا لتتخلص منها لمدة من الوقت ... على سبيل التغيير، اعتقدت أنك سئمت منها.

اشتدت هجمات الناموس عليّ ... كان يلسعني بشراسة، واصلت تعقبه وصفعه على وجهي وذراعي. وتمنيت لو أنني أحضرت معي بعض المواد الطاردة للحشرات، وأعلم ألا فائدة إذا طلبت من روب توفير هذه المواد الطاردة، فقلت له:

- ألا يضايقك الناموس؟

- لا، إنه يتركني وشأني؛ لأنني أستحم مرة في الشهر. إن رائحتي تنفره، لا شك في أنك تضع بعض معطرات البشرة الباهظة الثمن، أظن أن مثل هذه الأمور هي التي تجذبه.

- تباً! لا أستطيع تحمله. أنا ذاهب إلى الداخل، ربما تكون الدجاجة قد نضجت.

- بالتأكيد، إنني أشعر بالجوع، يجب أن نفترس وجبتنا الآن.

وعلى الرغم من أنني كنت أتضور جوعاً، إلا أنني وجدت صعوبة كبيرة في تناول أي شيء، كان لحم الدجاجة قاسياً، أما البطاطس فقد أصبحت مهروسة، وكنت أتساءل ما إذا كانت لا تزال خضراء. والخبز كان قديماً ويبدو كما لو مر عليه أسبوع، فقد كان قاسياً وجافاً كالخشب، تنتشر فيه بعض الفطريات. آليت على نفسي ألا أشرب أي ماء مهما بلغ بي العطش. قلت لروب:

- كيف تقضي وقتك وأنت وحدك في هذه المزرعة؟

- حسناً، أقضي يومي في قطع الأشجار، تلك الأشجار الضخمة في المنحدر. أتذكر تلك الأشجار الضخمة؟

- تقوم بقطع الأشجار؟

- نعم، ما المشكلة في قطع الأشجار؟ هل انضويت تحت لواء جماعة الخضر يا بول؟

- لا، لكنني اعتقدت أن المزارعين قد أقلعوا عن قطع الأشجار منذ سنوات طويلة.

- أنا لست منهم، هذه الأشجار الحمقاء تمتص كل الماء من الأرض. وتأتي على خصوبتها، يجب التخلص منها، ولا توجد طريقة أخرى. إن الأرض شديدة الانحدار ويصعب التخلص من الأشجار باستخدام البلدوزر في تلك التلة.

- روب، قل لي لماذا أنت باق هنا؟ إن هذا المكان عبارة عن مكب للنفايات. هاأنذا مكثت هنا لبضعة ساعات فقط، وقد بلغ مني السأم مبلغه، لا

توجد ثلاجة، ولا تلفاز لا شبك على النوافذ، لا ماء نقي، لا إضاءة، لا يوجد شيء ألبتة.

- بول، أرجوك لا تفسد عليّ حياتي. أنا أحب هذا المكان وكذلك أنت، لقد ذكرت لي ذلك بخط يدك الشهر الماضي، أنسيت ذلك؟ على كل حال، أين تريدني أن أذهب إذا قررت ترك هذا المكان؟ أي وظيفة يمكن أن أزاولها؟ أنا لم أتدرب على أي عمل. بول بصراحة هذا كل ما أملك.

- روب، إن هذا المكان بقي تماماً كما هو منذ أن تركته طوال هذه السنوات الغابرة، المشكلة أنني لم أتذكره أبداً بهذه الحال. في مكان ما في ذاكرتي كان هذا المكان أكثر نظافة ... واسعاً، كالجنة. لقد نسيت تماماً شرب ماء من برميل، ولا كهرباء ولا شبك للحماية من الذباب والناموس. قل لي لماذا تستخدم ماء البرميل؟

- وما المشكلة في ذلك؟ هل رأيت فأراً ميتاً بداخله لا سمح الله؟ قل لي أخي بول، ما المدة التي تنوي أن تقضيها معي هنا؟ امكث معي شهرين إذا أحببت. لدينا كثير من الأعمال التي يجب علينا إنجازها في هذا البيت، مثل إصلاح حظيرة الخنازير وصيانة ....

- أخي روب، أفكر في الرحيل غداً. أرجو ألا تفهمني خطأ ... ليس بسببك أنت، بل لا أعتقد أنني يمكن أن أتحمل هذا الحر والغبار وانعدام المياه والذباب وهذا الأكل ... أنت لا تقوم بالطهي كما كانت تفعل الوالدة، إنني لم أعد معتاداً على هذه الحياة.

- بالتأكيد، لقد أحبطتني وخيبت ظني فيك، لكنني متفهم. لهذا السبب لا تريد أي امرأة المجيء إلى هنا. سآخذك إلى غرفة النوم الآن.

سبقني وهو يحمل المصباح في يده إلى حيث حجرة نومنا القديمة. كانت توجد بالحجرة مرتبة شديدة الاتساخ مزودة بنوابض، وكان أحد النوابض يبرز من تحت المرتبة ويكاد يلامس أرضية الغرفة. كانت النوافذ مشرعة، وتخيلت جيوشاً من الناموس تنهش لحمي طوال الليل، قال روب:

- أظن أنك لست في حاجة إلى غطاء، فالجو حار نوعاً ما في الليل. لكن إذا أحببت أن تستحم فلدي ملء جردل من ماء البئر جهزته خصيصاً لك تحت المظلة.

حدقت بشيء من القرف في غرفة النوم الصغيرة. هي نفسها تقريباً كما كانت قبل أربعين عاماً، بل أصبحت الآن أكثر اتساخاً، وكانت خاوية وتوجد ملاءة ملطخة بالأوساخ مرمية على الأرض، قلت:

- روب، أتشعر بالانزعاج إذا نمت في السيارة؟

- في السيارة؟ لماذا؟

- بإمكاني تعديل المقعد وطيه إلى الوراء، ستكون السيارة أكثر راحة ولا يوجد فيها ناموس، آمل أن يكفي وقود السيارة في إبقاء مكيف الهواء عاملاً طوال الليل.

- إن ذلك يبدو مهيناً بالنسبة لي يا بول. هل هذه القذارة لا تناسبك؟ دعنا نلقِ نظرة على هذه السيارة العجيبة التي يمكن طي مقعدها إلى الوراء.

ذهبنا إلى الخارج. تقدم روب من السيارة، فتح الباب ثم جلس على مقعد السائق، ثم قال:

- وما هذا الجهاز؟

- إنه هاتف نقال، يمكّنك من الاتصال بأي مكان في أستراليا.

- رائع، هل يمكنني استخدامه؟

- بالتأكيد، كل ما عليك هو طلب الرقم.

قام بالضغط على أحد الأزرار بثقة، ثم سمعته يقول:

- سوزان، شغلي المولد وأنيري كل الأنوار حول حمام السباحة، سنوافيك خلال دقيقة لتناول العشاء.

أغلق الهاتف وشع وجهه بابتسامة عريضة كانت أقرب إلى الضحك. وتناهى إلى سمعي في تلك اللحظات ضجيج المولد الكهربائي وقد أخذ يزمجر، وفي مكان غير بعيد رأيت إضاءة تنبعث من الأنوار. وقلت له وأنا أكاد أموت من الغيظ:

- يا لك من حقير، لقد فعلتها، أكلت المقلب، اصطدتني. كان ينبغي عليّ أن أفكر أنك لم تعد تعيش هنا الآن.

- بالطبع إنني لم أعد أعيش هنا، لقد قمت ببناء فيلا حديثة، فوق تلك التلة، أتراها؟ كان ذلك قبل خمس عشرة سنة تقريباً. إن سوزان هناك مع الأولاد متشوقون لرؤيتك. ستُسر عندما تعلم أننا ننعم بكل شيء: تلفاز، براد، مشغلات دي. ڤي. دي، حمام سباحة. فقط أردت أن تعرف أن الأيام الخوالي الجميلة التي ما زلت تتذكرها ليست بالجمال نفسه الذي لا تزال تتذكره بها.

- هيا، قُد السيارة لنصعد التلة بسرعة. أنا لا أطيق هذا الناموس اللعين، قل لي: هل فعلاً تقوم بقطع الأشجار؟

- لا إنني أفضل رشها بالمحلول الكيماوي، أترى؟ لقد حصلت على هذه الصفقة من رئاسة الجيش.

6- التجول بالآنسة جنون

أدرت المحرك وانطلقت السيارة السليكا في اتجاه الشارع الرئيس، كان الوقت لا يزال مبكراً، لم تكن هناك سيارات كثيرة. كنت أتجول بالسيارة في استمتاع بالغ عندما اقتربت مني سيارة فولفو برتقالية اللون كانت تسير بمحاذاتي، فحانت من سائقها التفاتة سريعة نحوي، وفجأة انحرفت السيارة بحركة سريعة فأصبحت أمامي على بعد بضعة أمتار ثم انطلقت بسرعة جنونية، أثار تصرفه الاستفزازي هذا غضبي. ليس من حقه أن يأتي بهذه الحركة المستهترة، كاد يؤدي تهوره هذا إلى اصطدامه بي. ضغطت على دواسة البنزين بعنف فأصبحت قريباً منه ... خلفه مباشرة. وعندما رآني فسح لي الطريق كي أتجاوزه، لكن لم تكن هناك مساحة كافية، فبقيت خلفه تماماً.

انعطفت لأدخل في شارع بالوت، وعندما اقتربت من محطة الحافلات رأيت امرأة بدت ملامحها غير غريبة عني، وبينما أخذت أقترب منها أكثر وأكثر، قللت السرعة حتى يتسنى لي النظر إليها بشيء من التركيز، فاكتشفت أنها تذكّرني بامرأة أعرفها. نعم! إنها تيس جاكسون. تأكدت أنها هي بشحمها ولحمها بعد أن تفرست في وجهها ملياً، غير أنها أصبحت أكبر سناً وأكثر بدانة مقارنة بآخر مرة رأيتها فيها. أوقفت السيارة أمامها على بعد عشرة أمتار تقريباً، ثم رجعت بالسيارة إلى الخلف ووقفت بجانب المحطة، وضغطت على زر النافذة وأخرجت رأسي وناديتها:

– تيس!

اقتربت مني ونظرت إليّ بشيء من الاستغراب، قلت لها:

– هل تتذكرينني؟ أنا رودني شارب.

– أوه نعم، كيف الحال؟

– أعتقد أن الحافلة فاتتك. لقد غادرت قبل خمس دقائق فقط، ولن تأتي حافلة أخرى إلا بعد خمس وعشرين دقيقة. هل تحبين أن أوصلك؟

– حسناً، هذا إذا كانت وجهتك هي وجهتي نفسها، وكان توصيلي لا يسبب لك إزعاجاً، فلا بأس.

اقتربت الآنسة تيس من باب السيارة، فتحته لها فجلست بجانبي. كان وجهها ناعماً وجميلاً ومزيناً بطريقة متقنة تشبه أسلوب عارضات الأزياء. ترتدي بذلة بنفسجية زاهية اللون، قلت لها:

– إلى أين تنوين الذهاب يا تيس؟

– إلى وسط المدينة.

– رائع، حيث أعمل.

رأيت الفولفو البرتقالية تقف أمامي في تلك اللحظة، ولاحظت أن السائق أودع رسالة في مكتب البريد ثم عاد إلى الفولفو... ركبها وانصرف في اللحظة نفسها التي تحركت فيها سيارتي. ها أنذا أصادفه مرة أخرى، عندما تخطت سيارتانا حاجز الثمانين كيلومتراً، زاد سرعته إلى 85، لكنني بقيت خلفه وسيارتي تكاد تلامس سيارته، اقتربت منه أكثر وأكثر حتى لم يتبقَّ بيني وبين صدام سيارته الخلفي سوى بضع سنتمترات.

أردت أن أبين له إلى أي مدى أنا غاضب، لأنه لا يزال يكرر تصرفه الأرعن في اعتراض طريقي بصورة استفزازية. وعندما سنحت لي فرصة ووجدت مسافة كافية التففت حوله لتجاوزه، فضغطت على دواسة الوقود حتى وصلت السرعة إلى 115 فتخطيت أربع سيارات في آن واحد. أربعاً مرة واحدة! كانت السيارات تزحف في الطريق زحفاً. يا إلهي، لا أدري كيف يحصل بعض الناس على رخصة القيادة.

خفّضت السرعة حتى 100 كيلو متر، ووجدت نفسي خلف سيارة من نوع فالكون قديمة الطراز تقودها امرأة. بقيت خلفها أتحين أي فرصة قد تسنح لأتجاوزها، كانت هناك مسافة قصيرة، فاغتنمت الفرصة وغيرت ناقل الحركة إلى الثالثة، وانحرفت إلى الجانب الأيسر محاولاً استغلال الثواني الثلاثة التي قدّرتها لتجاوز السيارة، لكن في تلك اللحظة أضاء سائق السيارة القادمة من الاتجاه المعاكس أنواره الأمامية كأنه يحاول أن يقول لي محذراً: «إنني قريب جداً». فسحت له الطريق ثم التفتُّ إلى رفيقتي وقلت:

– لقد مرّت سنوات طويلة منذ آخر مرة رأيتك فيها.

– بالتأكيد، سبع سنوات تقريباً، منذ أيام الجامعة.

– لكنك لا تسكنين هنا، أليس كذلك؟

التفتت لتنظر إليّ، ثم قالت:

– لقد انتقلت من منزل والدتي بعد إكمال الجامعة مباشرة [illegible] أمس لزيارتها، فهي ليست على ما يرام، [illegible] بالحافلة ... لكن يبدو أن المواعيد [illegible]

لمثل هذه المشاوير، لكن سيارتي العتيقة تعطلت مؤخراً. يتعين علي البحث عن سيارة أخرى الأسبوع القادم.

ما إن فرغت من حديثها حتى مدت قدميها إلى الأمام، ثم سألتني قائلة:

- ماذا عنك؟ أما زلت تعيش مع والدك؟

- لا، أبداً، لقد توفي الوالد منذ خمس سنوات. وأنا أقيم حالياً في المنزل وحدي. وأعمل صحفياً في مجلة هوم كمينغ. أمارس نشاطات عدة في آن واحد، مقابلات، مقالات، أرد على مشكلات القراء العاطفية في عمود المحرومين، وأعمل في أثناء وقت فراغي في مجال الإعلانات. على كل حال الوظيفة ليست جيدة تماماً. أعتقد أن أحسن شيء فيها هذه السيارة التي استأجروها لي، سيارة رائعة أليس كذلك؟

أصبحت الحافلة اللعينة الآن أمامي تماماً في الطريق السريع. كان يجب ألا يسمحوا لمثل هذه السيارات الضخمة بالسير في هذا المسار من الطريق: إنها تسير بسرعة 75 كيلو متراً في الساعة في مسار يفترض أن تسير فيه السيارات بسرعة 80. وأنا عادة أقود سيارتي بسرعة 110 في المسار المخصص للسرعة العالية، بقيت قريباً من صدام الحافلة. وكنت بين الفينة والأخرى أخرج من المسار محاولاً تحين فرصة للتجاوز.

ظهرت كمودور سوداء خلفي مباشرة. تتحين فرصة التجاوز هي الأخرى، كأنني أنا الذي يسير بسرعة بطيئة!!. أبطأت الحافلة من سيرها قليلاً، لكنني لم أستطع رؤية ما إذا كان الوضع آمناً بالنسبة لي للتجاوز. بدأت أميل من مساري محاولاً استراق النظر، لكن فجأة مرت الكمودور

إلى جانبي كالرصاصة، وبدا محركها كما لو أنه سيلفظ كل أمعائه خلفها، وعلى الفور غيّرت عصا السرعات إلى الثانية، وضغطت برجلي بشدة على دواسة الوقود وانطلقت خلف الكمودور. لابد أنه مجنون! كاد يقتلني، فقد كانت هناك شاحنة تتجه نحوي مباشرة. وقدّرت أنه لو تجاوزته الآن فسيكون الوضع آمناً. بقيت خلفه، والسرعة تجاوزت 110، وكانت المسافة بيني وبينه ثلاثة أمتار تقريباً، ولمحت فرجة بين السيارات القادمة، لكنه زاد من سرعته في تلك اللحظة إلى 120 رغم أن السرعة القانونية في مسارنا هي 80.

كان الوقح يدرك أنه يتوجب عليّ أن أصل إلى سرعة 130 قبل أن أبدأ عملية التجاوز. قررت أن أبقى خلفه، فهو عاجلاً أم آجلاً سيرتكب خطأ، وعندها سأنقض عليه لأتجاوزه. وعندما لم يرَ مني أي محاولة لتجاوزه أبطأ إلى 110. بقيت خلفه مباشرة. وعندما أصبحنا في الجزء المستقيم من الشارع، علقت الكمودور خلف رجل عجوز غبي كان يسير بسرعة 80. أبطأنا من سرعتينا، الله وحده يعلم إلى أي مدى يثير مثل هؤلاء الأغبياء حنقي! قلت لرفيقتي:

- أين تعملين يا تيس؟

- في منظمة كوميونتي أيد. إنها منظمة تعنى بمساعدة دول العالم الثالث، نقدم المساعدات للفقراء، بدأنا مؤخراً العمل في المناطق الريفية من أستراليا. أؤدي معظم المهام: الدعاية، تنظيم عملية الحصول على الموارد المالية، قوائم البريد، التحقق من المشاريع، كما أجري بعض المقابلات الشخصية. وفي الواقع يفترض أن أجري مقابلة اليوم. يبدو لي أننا نعمل في المجال نفسه. فأنا أيضا أقوم بإجراء مقابلات مع الناس، الفرق الوحيد بيننا هو أنني لم أحصل على سيارة بعد.

شاحنته. وعلى مبعدة مني في الخلف كنت أستطيع رؤية الكمودور تبدو كأنما علقت خلف الشاحنة. هذا ما تستحقه أيها الأحمق! قالت رفيقتي:

- رودني، لا أريد تفويت حفلة الجاز المرتقبة.
- انظري، لدي عرض جيد لك، سآخذك إلى الغداء ثم نذهب إلى نادي الجاز الذي افتتح للتو، وفي أثناء تناولنا الغداء يمكنك إجراء المقابلة معي! وبهذه الطريقة تكونين قد اصطدت عصفورين بحجر.
- حسناً، على المرء ألا يشعر بالذنب إذا ما متع نفسه قليلاً. موافقة يا رودني.
- أنت ملتزمة جداً بعملك، أليس كذلك؟
- نعم، إنني أحرص على أداء عملي دائماً، وأعتقد أن الأمر يتوقف على تنظيم الشخص لحياته.
- أين تودين أن أوصلك؟ أنا عادة أوقف سيارتي في موقف سيارات التايم زون. هل هذا قريب من وجهتك؟
- بالتأكيد، هذا سيكون عظيماً جداً.

دخلنا إلى منطقة السرعة 60 ولم تكن هناك حيلة أفعلها إلا الاستسلام للزحف المروري من أجل قطع المسافة المتبقية. رأيت سيارة مترددة أمام إشارة المرور، فاغتنمت الفرصة وانتقلت إلى المسار الآخر مجتازاً ثلاث سيارات على التوالي، ثم اتخذت المسار الأيمن للتخلص من امرأة كانت تود الانعطاف يساراً. ثم زحفنا لمدة 10 دقائق. وعندما وصلنا المدينة اجتزت بعض الشوارع الفرعية، وهكذا أمكنني تجنب إشارتين وفي الوقت نفسه

تمكنت من السير بسرعة وصلت في بعض الأحيان 80، ثم عدت إلى الشارع الرئيس مرة أخرى. المشكلة تكمن في أن هؤلاء الحمقى لا يسمحون لك بالدخول إلى الشارع إلا بصعوبة. لكنني كنت محظوظاً اليوم، فقد وجدت مسافة ضيقة بين سيارتين استطعت أن أنحشر فيها، إنها مسألة تتعلق بمدى براعتك في المخادعة وعمل المقصات حتى تتمكن من شق طريقك بين هؤلاء الرعاع المجانين. كنا نزحف في شوارع المدينة المزدحمة، وفجأة لمحت في المسار الأيسر الفولفو البرتقالية نفسها التي كانت تزحف أمامي ببطء عندما غادرت بيتي. تبينتها من الملصقات المثبتة على الصدّام الخلفي. لا بد أنه سبقني أثناء زحمة السير.

قررت أن أسلك أحد الاختصارات للوصول إلى المسار. إذا وصلت في الوقت المناسب ستكون فرصتي جيدة لاجتياز إشارة المرور القادمة قبل السيارات الأخرى. انحرفت بسيارتي إلى الممر بسرعة 75 كيلومتراً، لكن كانت هناك سيارة أخرى قادمة تهم بدخول المسار نفسه! كنت أقود بسرعة، اعتقدت أن سرعتي تلك سترغمه على إفساح المجال لي للدخول قبله. وعندما اجتزنا تلك المسافة كانت هناك مسافة ستة سنتمترات بين السيارتين، فانحرفت في اتجاه زاوية الجدار المجاور بسرعة، لكن السيارة الأخرى شتّتت تركيزي. وعندما أتيت للمنحنى الضيق، كانت سرعتي حوالي 40 كيلومتراً، فخدشت الجدار الحجري بالجانب الأيمن لسيارتي. تباً لك!

غضبت لتصرفه الأخرق. فقد جعلني أفقد تركيزي، انطلقت في اتجاه السيارة بسرعة البرق. لا فائدة من التوقف، فمن الواضح أن الاحتكاك قد أحدث خدشاً طفيفاً في جانب السيارة وشوّه الطلاء.

وعندما وصلنا الموقف وجدناه يعج بالسيارات، وكان هناك طابور طويل من السيارات تشق طريقها نحو الموقف. كنت خلف سيارة فالكون زرقاء.

قالت ذلك وضحكت، ثم استطردت قائلة:

– على كل حال هذا من حسن حظي. فلو كانت لدي سيارة لما استطعت التحدث إليك. أتذكر تلك الأوقات الرائعة التي قضيناها معاً في الجامعة؟ كان يحلو لي الذهاب معك إلى حفلات موسيقى الجاز. أما زلت تحب الجاز؟

– نعم بالتأكيد، هل تذكرين صديقي، بيني سمبسون؟ لقد تزوج من عازفة كمان من فرقة سيدني السيمفونية.

– معقول؟ كنت دائماً أغار من بيني.

صمتُّ برهة قصيرة ثم قلت:

– أدعوك لتناول الغداء معي يوم السبت.

– عادة ما أعمل في البيت أيام السبت. وأنا أتوقع أن أعمل في البيت السبت القادم.

– أوه، هذا أمر سيئ، لا عجب أن تظل فتاة جميلة مثلك دون زواج! فالرجال لا يحظون بفرصة لمقابلتك. هوني عليك، لا يجب أن تعملي كل الأسبوع، يجب أن تروحي عن نفسك قليلاً.

كثر عدد الأغبياء الذين يتسببون في الحوادث في الطرق بسبب قيادتهم السلحفائية! بقيت خلف السيارة الكمودور، وأنا أدرك أننا نقترب من الطريق المزدوج الذي تبلغ حدود السرعة فيه 100 كيلومتر. انحرفت

السيارة القديمة التي تسير في المقدمة إلى المسار الأيسر عندما اتسع الطريق، لحقت بي الكمودور، تريد أن تصبح أمامي، لقد استغلّ فرصة إعاقة الحافلة لي فتجاوز الطابور ... تعقبته، لا يزال يأبى الانحراف إلى المسار الأيمن، وهو يسير الآن بسرعة 150. انتقلت إلى المسار الأيسر وبقيت أراقبه، ثم ضغطت على دواسة الوقود وتجاوزته وكانت قد وصلت سرعتي إلى 180 ثم أبطأت من السرعة قليلاً، لم يحاول أن يتعقبني، وهذا جيد بالنسبة له. أخذ قلبي يدق، لكنني كنت سعيداً لتخلصي منه. وأخذت المسافة تتسع بيننا شيئاً فشيئاً، وعندما أصبح خلفي على بعد نصف كيلومتر تقريباً أبطأت من سرعتي حتى سرعة 120.

كنت أرى شاحنة أمامي تزحف في تثاقل صوب المرتفع وتسير في المسار الأيسر، وفي المسار الأيمن كانت هناك شاحنة صغيرة نوع تويوتا تحاول اللحاق بالشاحنة، تسد طريقي تمنعني من التجاوز. وكنت أستطيع رؤية الكمودور تقترب مني مسرعة. إذا بقيت خلف التويوتا، فسوف أعلق، لأنه ما إن نجتاز المرتفع سيتحول الطريق إلى طريق مزدوج ذي مسار واحد. فقررت أن أتدارك الأمر، انتقلت إلى المسار الأيسر وأصبحت خلف الشاحنة بسرعة 110. وكانت الشاحنة تزحف في حدود سرعة 30 والتويوتا على وشك تجاوز الشاحنة. وفي الوقت الذي حاذيت فيه التويوتا، أدرت عجلة القيادة قاطعاً عليه فتجاوزته ... دخلت بينه وبين الشاحنة.

كانت المسافة بالكاد تسمح لي بالإفلات، تاركاً مسافة متر أو أقل على الجانبين. كانت تلك حركة متقنة مني، باعتبار أنني وصلت إلى سرعة 100 في ذلك الوقت. نظرت إلى مرآة السقف فرأيت سائق التويوتا وقد ارتسمت على وجهه نظرة ذعر حقيقية، ورأيت الدخان يتصاعد من عجلات

رأيت مساحة خالية أمامي، أبطأت الفالكون من سرعتها، وأسرعت مباشرة إلى المسافة الفارغة وأوقفت المحرك. توقفت الفالكون، وكانت أنوار الرجوع إلى الخلف مضاءة، وأخذ السائق يطلق بوقه لتنبيهي. وخمنت أنه يريد أن يتحرك إلى الخلف في اتجاهي. حسناً، أنه بطيء جداً! كان يجلس في سيارته، يحملق فيّ غاضباً، يعيق سير الحركة. أطلق بوقه مرتين ثم انطلق إلى الأمام لا يلوي على شيء، وكان ذلك ينم عن غضبه الشديد، لم أعره أي انتباه، لن أتحرك من مكاني حتى لو انطبقت السماء على الأرض، إنها غلطته هو فقد كان بطيئاً.

ترجلت من سيارتي أتفحصها، تباً!... كان هناك خدش كبير يبدأ من الباب الأمامي حتى الصندوق الخلفي. وقدّرت أن ذلك سيكلفني ألفي دولار. قلت مخاطباً رفيقتي:

- إن حركته كانت غبية جداً تسبب الغبي في خدش السيارة، كان يجب أن آخذ رقم سيارته.

- أظن أن سيارتك مؤمنة.

- بالتأكيد، إنها مؤمنة، ولا مشكلة من هذه الناحية. لا بأس، هذا سيوفر عملاً لشخص ما.

- رودني، لقد عدلت عن فكرة ذهابي معك لتناول الغداء وإجراء المقابلة.

- ماذا يعني ذلك؟

- لا أريد الذهاب معك.

كنا نقف بجانب السيليكا، يواجه بعضنا بعضاً، قلت لها مستفسراً.

- ما السبب؟

- كنت أفكر بشأن الموضوع. إن طريقتك في القيادة تضايقني.

- أوه. لا تقلقي بشأن هذا الموضوع! إنها خدشة صغيرة، لا شيء يذكر. طبقة من الطلاء وستكون السيارة في أجمل صورة.

- لا، إن الأمر لا يتعلق بهذا الجانب.

- هل تخشين أن أقود السيارة وأنا مخمور؟

- لا.

- دعيني أوضح لك أمراً، لن أقود السيارة أبداً. سوف آخذك في سيارة أجرة، سنأخذ سيارة أجرة أينما ذهبنا. وهكذا لن يكون هناك ما يقلقك بشأن قيادتي. سوف أترك السيليكا في البيت. ما رأيك؟

- لا يا رودني.

- ماذا إذن؟

- إن الأمر يتعلق بشخصيتك.

- شخصيتي؟ لقد قلت أولاً إن الأمر يتعلق بطريقة قيادتي للسيارة. ما الذي ترمين إليه؟

- كنت أراقبك وأنت تقود.

- ماذا تعنين؟

رأيت مساحة خالية أمامي، أبطأت الفالكون من سرعتها، وأسرعت مباشرة إلى المسافة الفارغة وأوقفت المحرك. توقفت الفالكون، وكانت أنوار الرجوع إلى الخلف مضاءة، وأخذ السائق يطلق بوقه لتنبيهي. وخمنت أنه يريد أن يتحرك إلى الخلف في اتجاهي. حسناً، أنه بطيء جداً! كان يجلس في سيارته، يحملق فيّ غاضباً، يعيق سير الحركة. أطلق بوقه مرتين ثم انطلق إلى الأمام لا يلوي على شيء، وكان ذلك ينم عن غضبه الشديد، لم أعره أي انتباه، لن أتحرك من مكاني حتى لو انطبقت السماء على الأرض، إنها غلطته هو فقد كان بطيئاً.

ترجلت من سيارتي أتفحصها، تباً!... كان هناك خدش كبير يبدأ من الباب الأمامي حتى الصندوق الخلفي. وقدّرت أن ذلك سيكلفني ألفي دولار. قلت مخاطباً رفيقتي:

- إن حركته كانت غبية جداً تسبب الغبي في خدش السيارة، كان يجب أن آخذ رقم سيارته.

- أظن أن سيارتك مؤمنة.

- بالتأكيد، إنها مؤمنة، ولا مشكلة من هذه الناحية. لا بأس، هذا سيوفر عملاً لشخص ما.

- رودني، لقد عدلت عن فكرة ذهابي معك لتناول الغداء وإجراء المقابلة.

- ماذا يعني ذلك؟

- لا أريد الذهاب معك.

كنا نقف بجانب السيليكا، يواجه بعضنا بعضاً، قلت لها مستفسراً.

- ما السبب؟

- كنت أفكر بشأن الموضوع. إن طريقتك في القيادة تضايقني.

- أوه. لا تقلقي بشأن هذا الموضوع! إنها خدشة صغيرة، لا شيء يذكر. طبقة من الطلاء وستكون السيارة في أجمل صورة.

- لا، إن الأمر لا يتعلق بهذا الجانب.

- هل تخشين أن أقود السيارة وأنا مخمور؟

- لا.

- دعيني أوضح لك أمراً، لن أقود السيارة أبداً، سوف آخذك في سيارة أجرة، سنأخذ سيارة أجرة أينما ذهبنا. وهكذا لن يكون هناك ما يقلقك بشأن قيادتي. سوف أترك السيليكا في البيت. ما رأيك؟

- لا يا رودني.

- ماذا إذن؟

- إن الأمر يتعلق بشخصيتك.

- شخصيتي؟ لقد قلت أولاً إن الأمر يتعلق بطريقة قيادتي للسيارة. ما الذي ترمين إليه؟

- كنت أراقبك وأنت تقود.

- ماذا تعنين؟

- رودني، إن لأي واحد منا عيوباً. لا يوجد إنسان كامل، لكن هنالك اختلافات متضادة في شخصياتنا.

- ما الذي تقصدينه؟

أغلقت باب السيليكا، وقلت لها:

- ماذا عن المقابلة؟

- رودني، أرجوك أعفني منها.

قالت ذلك، ثم انصرفت دون أن تبتسم في وجهي. يصعب فهم النساء!

لقد غيرت رأيها فجأة.

7- بذرة سيئة

إلى مجلة المحرر التاريخ: 12 يونيو 1989م

عزيزي المحرر،

أدعى كارل روشيستر، أكتب إليكم أطلب العون بشأن مسألة قد تبدو في غاية الغرابة بالنسبة لكم. وكلي أمل أن تنشروا رسالتي المرفقة هذه في مجلتكم الرائعة. لقد عثرت على هذه الرسالة مؤخراً محفوظة بين صفحات الكتاب المقدس مع حاجياتي القديمة، حيث إنها وضعت هناك منذ 50 عاماً، كيف وضعت؟ لا أعلم. وكما ترون، فإن الأمر يبدو في غاية الخطورة. وهو أمر يلحق العار بي وبعائلتي، لكن رغم أن هذه المسألة ظلت طي الكتمان طيلة هذه السنوات، إلا أنها ينبغي أن تعلن الآن على الملأ. واليكم الرسالة:

4 فبراير 1898م

رانغفيلي، فيكتوريا

إلى من يهمه الأمر

بصفتي أنا غوردون روشيستر، أرغب في تقديم هذا الاعتراف قبل أن توافيني المنية وأنا أرقد على هذا السرير، لأنني أخشى ألا أنهض منه أبداً وبالتالي يدفن سري معي. أقر بما سأذكره هنا وأنا في كامل قواي

العقلية، وعلى الرغم من أن بعض الناس قد يقول: ما أنا إلا مجرد رجل مجنون لأنني أضع مثل هذا الاعتراف، بعد أن نجوت من العقاب طيلة هذه السنوات جزاء لما ارتكبته من جرم شنيع، إلا أن ضميري لا يسمح لي أن أذهب إلى القبر وأنا أنوء بهذا الحمل الثقيل. وكون هذا اعترافاً، فأنا أعلم علم اليقين أنكم ستصدقون ذلك على الرغم من أن القصة مرعبة وتبدو شرّيرة. إن هذه الجريمة قد رانت بثقلها على قلبي لما يقارب ستة وثلاثين عاماً، ولم أبح بها لأي إنسان أبداً. اسمعوني جيداً، أقسم بالله العظيم إن ما سأسرده عليكم هو الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

إنه في ليلة السابع عشر من مايو عام 1862 كنت قد قصدت ملبورن فاحتسيت قليلاً من الخمر في حانة مشهورة لا وجود لها الآن. وبعد ذلك خرجت أتسكع في الطرقات، لم أكن أملك شلناً واحداً حتى، ومن أين لي بالمال وأنا عاطل عن العمل؟ ومستقبلي مظلم، وحيث إن الوقت كان خريفاً وكانت الليلة باردة، كنت في حاجة ماسة لطعام أسد به رمقي ومأوى دافئ أحتمي به. كنت أشعر بغضب شديد عندما كنت أسير في شارع لاتروب. أندب حظي العاثر وقدري الذي جعلني لا أملك شيئاً من حطام هذه الدنيا، ولا شيء أنطلق من أجله في هذه الحياة، لا زوجة ولا أولاد ولا بيت ولا وظيفة ولا أصدقاء. كنت أشعر بالوضاعة والإحباط على سوء حظي وأنا لم أكمل بعد الثالثة والعشرين من عمري. لقد جئت إلى ملبورن أتطلع إلى حياة أفضل وعمل مستقر وربما في أحد الأيام أمتلك مزرعة متواضعة في الريف. وفجأة مر بي رجل نصف مخمور، يرتدي حلة زاهية، فقررت أن أتبعه، إنها فرصة العمر ولا بد لي أن أغتنمها، هكذا حدثتني نفسي الأمارة بالسوء. وفيما أخذت أسير خلف الرجل في ذلك الشارع المظلم بدأت أفكر، لا بد

من أنه يحمل مالاً في جيبه، ولا شك في أنه يقصد منزلاً جميلاً، فيه وجبة دافئة واستقبال حار من قِبل زوجة وأولاد. إن هذا الرجل يمتلك كل شيء، بينما لا أملك شيئاً سوى ثياب بالية خاوية الجيوب لا تكاد تغطي جسدي الهزيل. وعقدت العزم على سلب هذا الرجل. وقدّرت أن ذلك لن يؤثر عليه كثيراً ولن يسبب له أي أذية، فهو بلا شك يملك الكثير في حين أنني أملك القليل. اقتربت أكثر وأكثر، ثم هجمت عليه من الخلف. أطحت به أرضاً، وتوقعت أن المفاجأة لا بد شلته، وهو يرقد أمامي في رعب وصدمة. إلا أنه أخذ يقاوم، وخشيت أن تلفت الجلبة التي أخذ يحدثها الأنظار، فركلته وواصلت ركله بعنف حتى لفظ أنفاسه، يا إلهي لقد قتلت الرجل.

لقد استبد بي الرعب عندما أدركت فظاعة ما اقترفته يداي من فعل آثم شنيع. كان تخطيطي أن أسلبه ماله فقط، والآن ها هو يتحول إلى جثة هامدة. لم تقوَ نفسي على لمس جيبه. لطالما كنت أعتقد أن لمس رجل ميت مدعاة لجلب الحظ العاثر. لكن ساعته المذهبية سقطت إلى جانبه. التقطتها وأطلقت ساقيّ للريح وقد ملئت رعباً، لكن بينما كنت أجري بدأت أشعر بالغضب. لقد قتلت الرجل من أجل ساعة عديمة القيمة! إنني لا أستطيع أكل الساعة، ولا أستطيع بيعها في تلك الليلة من أجل الطعام والشراب والمأوى. هذا إلى جانب أنني أدركت فجأة أنها قد تربطني بجريمة القتل النكراء هذه، فما كان مني إلا أن رميتها وواصلت الركض. وفي وقت متأخر من تلك الليلة تفضل مزارع كان يقصد مدينة جيلونج باصطحابي معه في جراره. كان المزارع كريماً معي، اقتسم معي بعض البطاطا المقلية. وأخبرني عن رجل كان يحتاج إلى عمال لتسوير مزرعته، فحصلت في اليوم التالي على العمل وأنا أكاد أموت تعباً وجوعاً.

انقضى أسبوع قبل أن أسمع في الأخبار عن جريمة القتل. وقرأت في الصحف أن الشرطة تمكنت من اعتقال رجل يدعى جيم هاميلتون، يُعتقد أنه القاتل. كان جيم هاميلتون هذا رجلاً فقيراً، يعمل في مزرعة صغيرة ولديه زوجة وأطفال. وقد حُدد موعد محاكمته الأسبوع القادم.

لا شك في أنني أسفت لجيم هامليتون، لكن الأمر لم يشكل هاجساً كبيراً بالنسبة لي لأنني كنت أدرك أنه بريء، ومن المؤكد أن المحكمة ستبرئه. ومن ثم تتركه يذهب إلى حال سبيله. ولسوف يحققون معه وسيجدون أنه بريء، لأنني أقسم بالله أنه لا يوجد دليل ضده. فهو لا يحتاج إلا إلى شهادة مني لإنقاذه من حكم مؤكد، لكنني ربما أرتكب خطأً ما فأتورط بدلاً عنه ويزج بي في السجن. لا ... لا، لن أفعل ذلك، فقد بدأت عملاً ثابتاً وحصلت على مأوى دافئ، من العار أن أدمّر حياتي في غياهب السجون، وهي الحياة الجديدة التي بدأت للتو.

صحيح أنني شعرت بالندم والأسف لقتلي ذلك الرجل الثري، لكن مهما فعلت فأنا لن أعيده للحياة مرة أخرى، ولا يستطيع أحد غيري فعل ذلك. لذلك أبقيت فمي مغلقاً وأخذت أترقب سير المحاكمة وما ستسفر عنه. وحسبما تناقلته الصحف فقد أخبر جيم هاميلتون البريء المحكمة أنه كان يتمشى في شارع لاتروب في وقت متأخر من تلك الليلة، فرأى ساعة مذهبة على قارعة الطريق، التقطها ثم واصل سيره فمر برجل مسجى على الأرض، فانحنى يتفحصه ليعرف ما إذا كان لا يزال حياً، كان يريد تقديم المساعدة. كان الرجل ثقيلاً جداً لم يقوَ على تحريكه فصاح: «النجدة! النجدة! هل من أحد يساعدني!». هب إليه الجيران يهرولون،

وعندما جاء الشرطي وفتش جيم هاميلتون عثر على الساعة المسروقة في جيبه. فاقتادوه إلى المخفر واتهموه هو بجريمة القتل.

توصلت المحكمة إلى أن جيم هاميلتون مذنب وحُكم عليه بالإعدام. وفي أول يوم سمعت فيه هذه الأخبار واسيت نفسي وقلت مبرراً: «لست من يجب أن يثبت أن جيم هاميلتون كان بريئاً. فقد وجدته المحكمة مذنباً، لست من سينزل به العقاب، بل المحكمة هي التي ستقوم بذلك». لكنني لم أتحمل مشاعر الرعب التي ملأت قلبي، رجل بريء، سيقتل من أجل جرم اقترفته أنا، يا للهول. قررت أن أتقدم للمحكمة وأقول إنني شهدت الجريمة ورأيت عصابة تقتل السيد غارنيت. وهكذا عقدت العزم للسفر إلى ملبورن لتقديم إفادتي. وعندما وصلت بلدة فوتسكراي الغربية سمعت الأخبار، فقد شنق جيم هاملتون في صبيحة ذلك اليوم، فعدت إلى البيت.

ذلك كل ما حدث قبل ستة وثلاثين عاماً. ولم أخبر أحداً قط طوال هذه المدة. لا زوجتي ولا أولادي ولا القس، فهذا السر قد بقي بيني وبين ربي. والآن هاأنذا ذاهب لمقابلة ربي في غضون ساعات أو أيام، فقد أصاب جسدي البلى. أريد أن يعرف الناس وخاصة عائلة جيم هاميلتون أن هاميلتون كان بريئاً وأنا القاتل. أقول قولي هذا والله شهيد على ذلك.

التوقيع: غوردون روشيستر.

سيدي المحرر، يمكنك أن تستنتج من فحوى هذا الاعتراف أن جدي يريد نشر هذا الاعتراف على الملأ. لذلك أرغب في العثور على أحفاد جيم هاميلتون محاولاً قدر المستطاع تصحيح هذا الخطأ الفادح من قبل

العدالة والاعتذار لهم. هلا تفضلتم بنشر هذه الرسالة، حتى يتسنى لي في آخر الأمر الاتصال بأحفاده.

المخلص، كارل روشيستر.

التاريخ 2 يوليو 1989م

عزيزي كارل روشيستر

لقد اطلعنا على صورة الرسالة التي أرسلتها لنا وهي مثيرة للاهتمام، لكننا لن نستطيع نشر هذا الاعتراف بصورته الحالية. إذ من أين لنا أن نعرف أن ما جاء في هذه الرسالة صحيح؟ وكيف نعرف أنك لم تختلق هذه القصة؟ يجب أن يكون هناك دليل داعم قبل مجرد التفكير في نشرها. إضافة إلى بعض الاعتبارات الأخرى.

المخلص، جاك كومبس، المحرر

14 سبتمبر 1989م

عزيزي/السيد جاك كومبس

بهذا أود أن أحيطكم علماً بأنني كنت مشغولاً جداً خلال الشهور الماضية. لقد بحثت بين مئات المدونات والصحف القديمة من أجل العثور على دليل يدعم الرسالة التي أمامكم، تجدون مرفقا الآتي:

1- وثيقة الاعتراف الأصلية على سرير الموت. بإمكانكم إجراء اختبار علمي عليها للتحقق من عمر الوثيقة.

2- قصاصة الصحيفة التي تبين التقرير الكامل لمقتل السيد غارنيت وتفاصيل محاكمة جيم هاميلتون. وستلاحظون أن التقرير يشير إلى زوجة وأولاد السيد جيم هاميلتون. وهذا يعني أن له أقارب.

3- تجدون أيضاً توثيقاً لعملية الشنق كما وصفت في الصحيفة وقد نشرت تحت عنوان: «الحشود تتدافع وتهتف لموت قاتل أثيم» وإذا تحققتم من تاريخ الصحيفة تجدون أنها صدرت قبل مائة عام تقريباً، وأنا متأكد وأثق تماماً أن الحبر وأسلوب الكتابة غير زائف. أرجو منكم مراجعة كل ذلك ومن ثم نشر هذه الرسالة؛ لأن هذا سيزيل عني الإحساس بالخزي الذي تلطخت به سمعة اسرتي.

المخلص، كارل روشيستر

مجلة أوستون الشهرية — 29 سبتمبر 1989م

عزيزي السيد/ كارل روشيستر:

لقد أولينا رسالتك الأخيرة اهتماماً بالغاً، إذ يبدو أننا حصلنا أخيراً على دليل كافٍ يمكننا من نشر اعتراف قريبك. إن خطوتنا التالية هي إرسال مراسلنا إلى مقاطعة جيلنق للتحري عن مزيد من التفاصيل بشأن المكان الذي عاش فيه. وسيقوم مراسلنا بإجراء بعض التحقيقات عسى أن يعثر على مزيد من المعلومات عن غوردون روشيستر. إن الأمور تبدو مبشرة، وربما سنتمكن من نشر الاعتراف في غضون شهرين.

المخلص، جاك كومبيز، المحرر

إلى جاك كومبيز — 4 نوفمبر 1989م

عزيزي جاك،

لقد مر شهران حتى الآن دون أن أتلقى أي كلمة من قبلكم. ما الذي حدث بشأن مراسلكم الذي يفترض أنه سيجري عملية التحقيق؟ هل ستمضون

قدماً في عملية نشر رسالة الاعتراف؟ إن هذا أمر خطير وجدّي يتعلق بحياة عدد من الناس. أرجو منكم أن تولوا هذا الأمر أقصى اهتمامكم.

المخلص، كارل روشيستر

إلى السيد/ كارل روشيستر

بهذا نقدم لك اعتذارنا العميق عن التأخير في الكتابة لك. لقد كنا مشغولين جداً في الآونة الأخيرة. لذلك لم نستطع معالجة الموضوع حتى الآن. لقد ذهب المراسل إلى مقاطعة رانغفيلي، بالقرب من غيلونغ، وأجرى تحقيقاً مكثفاً بخصوص حياة غوردون روشيستر. ووجد أن كل الأدلة التي قدمتها لنا حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ومع ذلك نأسف لعدم تمكننا من المُضي قُدماً في نشر الاعتراف.

كان غوردون روشيستر رجلاً مُجدّاً في عمله. وقد وهب كل شيء لمدينته قبل وفاته. وفي الواقع هناك قدر كبير من المال لا يزال مودعاً لصالح تمويل المنح التعليمية ومن أجل دعم الفرق الرياضية. ويتم دفع مصاريف الجامعة لعشر طلاب محليين سنوياً من ريع ممتلكاته. وتحمل قاعة المدينة اسم روشيستر، وكذلك كلية الفنون، والشارع الرئيس يطلق عليه جادة روشيستر. وقد سُميت الحدائق العامة والقاعات العامة والنصب التذكارية باسمه تخليداً لذكراه. إن سلالة السيد روشيستر الحقيقيين يعتبرون كلهم من الرجال النيرين والعقلاء والأكثر نبلاً.

وعلى الرغم من أنه لا يوجد أي واحد من آل روشيستر يعيش في المقاطعة، كما تعلم، فإن الاسم روشيستر يعد جزءاً لا يتجزأ من تاريخ المدينة، وإن أي محاولة مهما صغُرت لتشويه سمعته ستُعد انتهاكاً لقدسية

هذا الاسم الجليل. لقد أرسل لنا المجلس محذراً من مغبة نشر هذا الاعتراف، وأنه في حالة قيامنا بنشره فإن المجلس سيقاضينا.

لذلك التمسنا المشورة القانونية بشأن هذا الموضوع، ونُصحنا بألا نمضي قُدماً في أمر النشر. وأقدم لك أسفنا البالغ لنقل هذه الأخبار المحزنة إليك. إن هذه الجريمة وعملية الشنق التي أعقبتها حدثت قبل زمن طويل، وليس هناك خير ولا فائدة تُرجى من تقليب المواجع. لماذا لا تنسى الموضوع برمته؟ شاكرين ومقدرين أحاسيسك النبيلة والمرهفة.

المخلص، جاك كومبيز، المحرر

21 شارع راكسين — 2 ديسمبر 1989م

رانغفيلي، فيكتوريا

عزيزي الأب كابيل

أنا المدعو كارل روشيستر، لقد حاولت تتبع أثر أحفاد السيد جيم هاميلتون. وأخبرتني السيدة لورانس أن جدك يعرف العائلة معرفة تامة على مدى سنوات عديدة. هلا تكرمت بإطلاعي على أي شيء تعرفونه عن هذه العائلة، من المهم جداً بالنسبة لي إيجاد طريقة ما للاتصال بهؤلاء الأحفاد.

المخلص، كارل روشيستر

14 يناير 1990م

عزيزي السيد روشيستر، لقد عاش وعمل كل من جدي ووالدي كقسيسين في هذه المقاطعة لمدة 90 عاماً تقريباً. إن العائلة التي ذكرتها،

هاميلتون، كانت معروفة جداً بالنسبة لهما. لقد بحثت في مذكرات العمل الخاصة بوالدي التي تم حفظها عندما كان يعمل قساً.

كانت القصة تبدو محزنة إلى حد ما. وكما تعلم فإن جيم هاميلتون كان قد شنق بسبب جريمة قتل السيد غارنيت. لقد تربى أولاده في جو مسمم بالشعور بالذنب والكراهية. لقد كان أهل البلدة في غاية الورع في تلك الأيام، وشعروا بأن أولاده الخمسة قد نبتوا من «بذرة سيئة»، وأن خطايا الوالد لا بد ستظلل حياة الأولاد، حتى الجيل الثالث أو الرابع.

لا أحد كان يثق في الأولاد، كان الجميع يعاملونهم كمجرمين مدانين بجريرة جريمة والدهم. وعندما كبر الأولاد، حققوا ما توقعه أهل البلدة منهم، إذ بدؤوا بممارسة بعض الجرائم الصغيرة، ثم انغمسوا في إدمان الخمر وممارسة العنف. وعندما بلغ كل واحد منهم العشرين، أُرسلوا الواحد تلو الآخر إلى غياهب السجون.

أما البنتان فقد بُليتا بحثالة البلدة، وانتهتا في آخر الأمر بإنجاب سلسلة من الأولاد غير الشرعيين. (يجب أن أعترف أنني لا أحب هذا الوصف، فليس الأطفال هم غير الشرعيين بل نظام الزواج في ذلك الوقت).

وفي نهاية الأمر أصبحت البنتان عاهرتين مشهورتين، ربّتا أولادهما في جو الجريمة والسرقة والإدمان على الخمر. وكان يصمهم سكان البلدة بأنهم: «نبتوا من بذرة سيئة. في رحم عاهرتين، وجَدهما قاتل مجنون شُنق بسبب جرائمه». وهكذا تبعثرت كل العائلة في نهاية الأمر، وقد فُقد

نسبهم واختلط مثل آبائهم تماماً. وكل الذي عُرف عن العائلة لم يتعدّ مُقتطفاً صغيراً نُشر في الصحيفة المحلية في عام 1932.

عائلة القتلة

آخر قريب معروف للقاتل جيم هاميلتون سيئ السمعة، السيد غاري هاميلتون، 43 سنة، وجد مقتولاً في زنزانته. صرح بذلك رقيب شرطة جودسون لصفحة أخبار الأسبوع، يذكر أن غاري هاميلتون كان قد اتهم بقتل رجل آخر بعد شجار نشب بينهما بسبب زجاجة جعة. كانت العائلة تعيش في المقاطعة لسنوات عديدة، واشتهر أفرادها كمجرمين خطيرين وقتلة. وقد علق واحد من المزارعين المحليين قائلاً: «إن كل أفراد عائلة هاملتون سيئون. انحدروا من صلب قاتل وحشي، وتربوا على الخطيئة، وكل واحد من الأسرة كان سيئاً. وكان أهل البلدة يتحاشونهم دائماً، ولا أعتقد أن أي شخص سيشارك في تشييع الجنازة».

25 يناير، 1990م

عزيزي جاك كومبيز، المحرر

أناشدكم إعادة النظر بشأن موضوع نشر الاعتراف وحتى ولو مقالة مقتضبة عنه. أريد أن أضع الأمور في نصابها الصحيح، ليس فقط من أجل العائلة بل من أجلنا جميعاً. أعلم أن من المستحيل تصحيح الظلم والتحامل والكُره الذي تسبب في قدر كبير من الضرر. ما زلت أصر على الوصول إلى أحفاد جيم هاميلتون أينما كانوا. أرجوكم، أنا في حاجة لمن يقوم بنشر هذه القصة في مجلة كبيرة كمجلتكم.

أريد أن يعلم أحفاده الذين لا يزالون على قيد الحياة أنهم لا يرثون الشر، حتى لا يستسلموا للانغماس في الجريمة والقنوط. أريد أن يعرف الكل أن المرء يجب أن يرضى بماضيه. لأن عائلتي لها «بذرة شر» لأننا لا نعلم، ولأن أهل البلدة لا يعلمون أن أهل روشيستر يتصرفون كمواطنين متمدنين يحبون عمل الخير.

ويبدو لي جلياً الآن، أننا في كثير من الأحيان نكون كما يتوقع لنا الآخرون أن نكون. فتتأثر إرادتنا الحرة وتتشكل حسبما نؤمن به، بغض النظر عن أي مدى يمكن أن تكون هذه المعتقدات خاطئة.

كارل روشيستر

قصاصة صحيفة:

ملبورن، في 2 فبراير لقد تعرض السيد جاك كومبيز محرر مجلة أوستون الشهرية إلى الضرب المبرح والركل في الرأس بعد أن سقط على الأرض خارج مكتبه. وقد تم إبلاغ الشرطة أن مهاجمه هو السيد كارل روشيستر، يُذكر أن هذا الأخير استشاط غضباً في أثناء نقاش مع المرحوم حول رفضه نشر سلسلة من الرسائل كان المتهم يطالبه بنشرها. وفي وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، اعتقلت الشرطة كارل روشيستر، وعندما توفي جاك كومبيز في المستشفى متأثراً بجراحه، اتهم كارل روشيستر بقتله.

8- عملي الأول

أود أن أخبركم عن قصة عملي الأول، عندما لم أكترث كثيراً لاستلام أجري. لكن أرجو أن تسمحوا لي أولاً أن أحكي لكم شيئاً عن حياتي الباكرة، فلقد بدأت متاعبي منذ اليوم الذي ولدت فيه. إذ حلّت بي لعنة تسبب فيها أبي الذي أنا من لحمه ودمه، ويرجع ذلك بشكل مباشر لشغفه الشديد بالسيارات الإنجليزية. فعندما ولدت قرّر أبي أن يسميني تيمناً بإحدى هذه السيارات التي كان مولعاً بها. حسناً، يا ليته اختار لي اسم جاغوار أو موريس أو أوستين أو حتى ليلاند. إلا أنه أصرّ على أن يسمّيني روفر! وذلك هو الوقت الذي بدأت فيه متاعبي، إذ لم ينقضِ وقت طويل حتى سمّى جاران من جيراننا كلبيهما روفر.

هل يمكنكم أن تتخيلوا مدى المعاناة التي عانيتها في المدرسة؟ إذ كان يهتف بي أحد التلامذة: «روفر، هل يمكنك أن تجلس!» ثم يصرخ آخر متهكّماً: «تكوّر وتظاهر بأنّك ميت!» وكان يحلو للمعلم أن يقول لي: «روفر، إن كتابك أصبح كأذني الكلب» فيعلو صخب زملائي التلامذة في صوت أشبه بنباح الكلب ممزوجاً بالضحكات. وهكذا استسلمت لقدري، واستطعت أن أنمّي لدي حس الدعابة، فما عسى كلب مُهجن مثلي مغلوب على أمره أن يفعل، سوى ذلك؟ بيد أن المشكلة لم تكن في المدرسة ولا حتى في أقراني، بل في عملي الأول الذي سأخبركم بقصته.

كان الوقت نهاية السنة الجامعية، وكنت أزاول عملاً مؤقتاً كعامل يقوم برص العلب الفارغة في مصنع لتعليب الأطعمة. وأفضّل عدم الإفصاح عن اسم المصنع خشية أن أتعرض للانتقام. فقد أوكلوا لي في أول يوم عمل مهمة تلقيم العُلب الفارغة في السير الميكانيكي الذي كان يعمل على نقلها، وكانت تُحدث صليلاً وقعقعةً عاليةً وهي تتحرك إلى الأعلى ثم تغيب عن الأنظار بمعدّل مائتي عُلبة في الدقيقة. كان عملاً بسيطاً. وقد شرح لي السيد جونز ما يتوجب علي فعله.

- هل هذا كل الذي سأقوم به طوال اليوم؟

- ماذا، هل هذا مضجر؟

- هل يمكنني إحضار راديو لأستمع إليه بينما ....

- طبعاً غير ممكن! السماع لجهاز الراديو ضد القوانين، وإذا ضبطك فرانكشتاين مدير القسم، فسوف يعاقبك.

- ماذا قلت؟

- فرانكشتاين هو السيد غوليث، لكن الكل ينادونه سراً ومن خلف ظهره بفرانكشتاين، لا تجعله يكتشف أنك مُقصّر في عملك، إنه رجل حصيف، إلا أنه عندما يغضب يتحول إلى وحش كاسر.

ثم التقيت بالسيد جونز مرة أخرى في صالة كانت مخصصة للتدخين، فابتدرني قائلاً:

- روفر، كيف تسير عملية تلقيم العُلب؟

- على ما يرام سيد جونز. فقط أشعر بشيء من التضجر.

- لا عليك، ستعتاد على ذلك.

- هل يمكنني أن أطالع كتاباً؟

- أوه بالتأكيد، لا بأس في ذلك. لكن عندما يضبطك فرانكشتاين، سيجد شيئاً يمسح به الدم من يده بعد أن ينتهي منك.

يقول الناس عني دائماً إنني عنيد وذلك عندما أصر على عمل شيء ما. كنت أعتقد أنه من المجحف ألّا يسمحوا لي بمزاولة شيء لأتسلى به بينما أعمل. فقرّرت استخدام جهاز سماع الموسيقى الجوال (الووكمان). كنت أحتفظ به في خزانة أغراضي، واعتقدت أنني إذا وضعت السماعات الصغيرة في أذنيّ فلن يلاحظ ذلك أحد. جلست لدقيقة في زاويتي الصغيرة أحاول ضبط موجة محطتي المفضلة على الإف إم. وفجأة رأيت مخلوقاً كأنه أتى من الجنة، كالملاك. كانت ذات جمال ساحر يسلب الألباب، وكانت تتزنر بحزام أبيض يلتف حول خصرها النحيل فيزيده فتنة. ولم أرَ في حياتي قط مثل هذا الجمال والفتنة. كانت تبدو في حوالي العشرين، مفعمة ونضرة كما لو أنها قطعة خبز طازجة خرجت للتو من المخبز ثم أُرسلت إلى الأرض كملاك متخفٍّ في صورة امرأة شابة. كانت تقف على بعد مترين تحدّق فيّ بعينين آسرتين ومفتوحتين باتساع. حدقت فيها أنا أيضاً وكان فمي مفغوراً، وقالت لي شيئاً لم أستطع تبينه.

- ماذا؟

لكنني لم أستطع سماع شيء مما قالته، فقد كان الووكمان اللعين يصطخب في أذنيّ. أصابني شيء من الارتباك، ثم استدارت ومشت مُبتعدة. هل عادت إلى الجنة؟ قفزت منتصباً، وأنا أجر الووكمان ليسقط

من المقعد على الأرض ساحباً السماعتين من أذني. حاولت إيقافها، ولكنها أسرعت الخطى. لم تعد هناك عُلب كثيرة متبقيّة، وكان الملقم شبه فارغ. تجاهلت العُلب وكل شيء وطفقت مسرعاً في إثرها، والووكمان ينجر على الأرض كأنني أجر أذيال الخيبة. التف سلك السماعات حول حذائي. توقفت لتخليصه، فاختفت. استدرت لأرى سير التلقيم وقد خلى من العُلب، ورأيت ضوءاً أحمر يُومض منذراً بسوء. أسرعت عائداً وفتحت صندوق علب جديد، ولكنني كنت طوال ذلك الوقت أفكّر في الملاك ذي الرداء الأبيض الذي أُرسل إليّ. تُرى أين ذهبت؟ إنها ملاك أرسله الله لي! ربما تكون نوعاً من الرؤيا آتاني من فرط تحديقي الطويل في هذه العُلب الغبية. إنها نشوة مُلقمي العلب. بدأت ألقم العلب بسرعة، التي أخذ يشفطها الجهاز المتعطش للمزيد، وأخذت العلب تمر مسرعة في السير كأنها صورايخ فضية لامعة، إلا أنني كنت طوال الوقت أفكر بطلّة الملاك.

وعندما فتحت صندوق العلب الفارغة الثاني، خالجني شعور مفاجئ بأن هناك أمراً ما لا يبدو طيباً. لكن ما هو؟ أوه يا إلهي! لقد وضعت مجموعة العلب السابقة على سير التلقيم بالمقلوب! وهذا ما جعلني امتلئ رُعباً. أصبح الوقت متأخر جداً لمعالجة الخطأ بتعديل وضعية العلب، فقد اختفت الآن العلب تماماً وانتقلت إلى سُيور أخرى تسير فوق رأسي بدت كأنها متاهة أو شبكة من الممرات المعقدة والمحيرة. وأدركت أن ما يجب عليّ فعله الآن هو الجري وراء تلك العلب والعثور عليها قبل أن تبدأ الماكينة بتعبئتها. إذا استعطت العثور عليها فيمكنني تعديلها ووضعها بالطريقة الصحيحة قبل أن تصل إلى ماكينة التعبئة.

أخذت أجري تحت السير الناقل محاولاً تتبع عملية تقدم سير العلب. وفي نهاية الأمر عثرت على النقطة التي تُعبّأ فيها العلب بالفاصولياء المطهوّة. كان بإمكاني رؤية العلب وهي تسير فوقي تماماً تتقدم تحت جهاز التعبئة واحدة تلو الأخرى، حاولت الوصول إلى العلب، إلا أن الوقت كان قد تأخّر جداً. فقد أصبحت العلب أبعد من أن أستطيع الوصول إليها، ورأيت الماكينة تحاول الآن تعبئتها. وبدلاً من تعبئتها، فقد كومت الماكينة الفاصولياء فوق قعر العلبة المقلوبة. وبدأت الفاصولياء المطهوة وصلصلتها تسيل في كل مكان: على جوانب العلبة ثم إلى السير الناقل حيث يتم هرسها بوساطة البكرات، ثم بدأت قطراتها تتساقط على الأرضية. وأخذت الصلصة تجري كما الحمم البركانية تتدفق من علبة تلو الأخرى، وأخذت الفاصولياء المرفوضة تتساقط وتسيل على الآلات. لم يكن هناك من شيء أستطيع فعله. عُدت راجعاً إلى محطة عملي، وفي الطريق شاهدت فاصولياء مطبوخة مهروسة تنتشر ببطء على طول المشى النظيف، قطرات صلصة تتساقط ثم تهوي على البكرات، وتنسحق ثم تنهرس حتى تصبح مثل زبدة الفول السوداني. جريت إلى مكاني وواصلت تعبئة العلب، أحاول باستماتة تقليص الفارق الذي نجم عن التأخير ممنياً النفس أن لا يلاحظ أحد أنوار التحذير الحمراء التي بدأت تومض. وبعد عشر دقائق، أصاب تركيزي طلقات شعوري بالإثم مما حدث، سمعت السير الناقل وهو يتوقف. ثم تنامى إلى مسامعي صوت من خلال مكبّر الصوت يفيد بإيقاف السير الناقل لمدة خمس عشرة دقيقة، ويرجو من الجميع التجمع في الخارج. بدأ الكل التحرك خارج المصنع في اتجاه الكافيتيريا ودورة المياه. وفي طريقي إلى الخارج كنت

أرى الفاصولياء المنسحقة وعلامات الانزلاق الطويلة الممتدة على الأرض التي تفضح حدوث تزحلقات لعدد كبير من العاملين. ورأيت سترات بعض النسوة البيضاء ملطّخة بالصلصة الحمراء في منطقة المؤخرة، وبدا لي مشهد العاملين كأنهم عمال في مسلخ. تجمعنا في الخارج، واغتنم بعضهم الفرصة فأخذوا يدخنون. وكانت تبدو على آخرين علامات الارتياح لمدة الراحة الإضافية المفاجئة، بينما كنت أنا في قمة شعوري بالرعب الذي كانت تشي به تعابير وجهي وكنت أخشى أن يُكتشف خطئي.

رأيت فرانكشتاين مدير الصالة العبوس يتقدم نحو الجمع ولطخة حمراء مفرقة تبدو واضحة في أحد جوانب سترته البيضاء الواسعة، تُخبر عن قصة انزلاقه وسقوطه المريع.

- هدوء من فضلكم! يبدو أن خطأ ما وقع في آلة التعبئة، ويتم الآن فحص الماكينة، وحالما يتم إصلاح المشكلة ستعودون إلى عملكم.

صاح أحدهم:

- ماذا حدث؟

- يبدو أن وعاء الفاصولياء المطهوة قد امتلأ وفاض، فنتج عن ذلك تساقط الفاصولياء في السير الناقل وعمّ ذلك كل المصنع، أنا شخصياً..

صمت فرانكشتاين لبرهة وأخذ يتفرس وجوه العاملين ثم استطرد قائلاً:

- أشك في عدم حدوث عملية تخريب متعمد.

وردّدت صدى شكوكه إحدى العاملات التي كانت تبدو في منتصف العمر وتقف خلفي مباشرة في تلك الأثناء:

- أنا أيضاً أعتقد ذلك! فبعد أن شعرت بقطرات الصلصة تتساقط على رأسي، شاهدت رجلاً غريباً يجري في الممر.

- كان يجب أن تخبريني على الفور! أعتقد أن منافسينا يحاولون تعطيلنا، أقسم بالله العظيم إن قبضت على هذا الحقير فسوف أقطعه إرباً إرباً بهاتين اليدين.

قالها وقد كوّر قبضتي يديه وقربهما من وجهه والشرر يتطاير من عينيه، فنظرت مشدوهاً إلى يديه الضخمتين، اللتين يغطيهما شعر كثيف وتبدوان مثل يدي كنج كونج، ثم قال موجهاً كلامه للمرأة:

- ما شكله يا ميرج؟

- صغير السن، لم أره من قبل، وكان يضع نظارتين على عينيه.

خلعت نظارتي بسرعة بينما أخذت نبضات قلبي تتسارع ... ويكاد قلبي يفلت من صدري.

- حسناً، أريد من الجميع أن ينتبه، والإسراع بإبلاغي إذا شاهدتم أي شخص يتصرف بريبة. يمكنكم العودة إلى عملكم عندما تسمعون الصفارة.

ثم أصبت بالذهول عندما رأيت «الملاك» يظهر بين الجمع. أخذت تسير في اتجاه فرانكشتاين مباشرة ثم رأيتها تتحدث إليه. اقتربت منهما أكثر لأسمع ما يقولان:

- ساندرا، بلّغي أمك أنني سوف أتأخر ساعة الليلة. أريد أن أراجع بعض المعلومات عن موظفينا القدامى.

- أبي، هل تعتقد حقاً أن هذا ناجم عن تخريب؟

- أنا متأكد من ذلك، وعندما أضبط هذا المجرم سألقنه درساً لن ينساه أبداً، بل سأحيله إلى لحم للكلاب.

- مع السلامة يا أبي.

يا إلهي! إنها ابنة فرانكشتاين، إلا أنها في منتهى الجمال. رأيتها تقف وحدها، تبعتها من الخلف:

- سـ..ساندرا؟

استدارت نحوي ثم قالت:

- أوه، أنت الشاب الجديد، أليس كذلك؟

- أنا روفر. طالب جامعي، أعمل معكم هنا في أثناء الإجازة.

- واو، أنا طالبة جامعية أيضاً! آتي إلى هنا بعد نهاية نصف السنة الدراسية دائماً.

قلت لها ضاحكاً:

- هذا عظيم، هل سبق أن حضرت أياً من محاضرات روج ويليام في العلوم السياسية؟

- نعم إنني أحب ذلك، إنه منجم من الضحك، أليس كذلك؟

- إنه أعجوبة. لكنني لم أشاهدك في الحفلات الموسيقية أو في أي مناسبات كهذه أبداً.

- أنا أقضي جُل وقتي في المسرح.

كانت ساندرا تتحدث ولم أستطع تحويل عينيّ عنها، إنها آية من الجمال. تملكتني رغبة حقيقية لدعوتها للخروج معي في نزهة قصيرة، لكنني توجست خيفة ـ هل سبق لي أن تحدثت مع ملاك؟ فقلت في نفسي: اطلب منها ذلك ... الآن! لكنني شعرت بأنني خائف ومُرتبك جداً: قُل لها أن تخرج معك، هيا أخبرها:

- ساندرا؟

وفي هذه اللحظة انطلقت الصفارة، قلت لها:

- أود أن أصطحبك معي إلى السينما.

- ماذا؟

وحينما توقفت الصفارة حاولت مرة أخرى وفي هذه المرة خاطبتها بصوت مرتفع قليلاً:

- أريد أن أقضي معك بعض اللحظات الجميلة.

أطبق الصمت على المكان. لماذا قلت لها ذلك الآن، إنها مشكلة أعاني منها، فعندما أشعر بأنني مُهدد في موقف ما، ينطلق لساني بأي شيء، ولا أستطيع السيطرة على نفسي، حاولت أن أصلح الأمور، فقلت لها:

- أنا أعني أن ...... أريد أن آخذك إلى السينما لكي .... لا لا.

لكنها كانت في تلك اللحظات قد استدارت وابتعدت. كان الجميع قد سمعوني، فاقترب مني شاب نحيل يبدو في مثل عمري، فوجه كلامه إليّ قائلاً:

- إنك شاب جريء حقاً! إن والدها يحب ضرب الناس. لقد كان فرانكشتاين مُصارعاً، إلا أنه أُوقف لأنه كان يقتل كل من يصارعه في الحلبة.

أخذ زملاؤه يضحكون مني وصاح أحدهم:

- لابد أنك تتمنى الموت. نعم، كلّنا نذكر أن آخر شاب تحدث معها تمت تعبئته في مائتي علبة يخنة إيرلندية، ثم خرجت شائعات تقول إنه سقط على مفرمة لحم!

قال شاب آخر:

- لا، أنا لا أصدق ذلك، أعتقد أنه ذهب طعاماً للكلاب.

وفي اليوم التالي عندما كنت أجهز نفسي لمباشرة العمل وجدت فرانكشتاين والد ساندرا في انتظاري.. هل جاء ليدخلني إلى مفرمة اللحم؟

- أنت روفر؟ لديّ عمل مختلف لك اليوم: الطماطم، اتبعني.

ذهبنا إلى محطة عمل بها بعض العاملات، كُن يعملن على طاولة مُرتفعة ويقُمن بفرز الطماطم.

- ستبدأ الطماطم بالتدحرج نحو هذا الأنبوب المائل، ما عليك إلا وضع صندوق فارغ في نهايته، وعندما يمتلئ ضعه على منصة النقل الخشبية تلك، هل فهمت؟

- بالتأكيد، هذا أمر سهل للغاية.

وقد كان كذلك، لم تكن هناك مشكلة على الإطلاق حتى تلك اللحظة، إذ كانت الطماطم تأتي في اتجاهي متدحرجة عبر الأنبوب المائل بلوب، بلوب، بلوب إلى داخل الصندوق، فيمتلئ الصندوق ببطء. وكنت أرى أربع نسوة يعملن على السير الناقل. يقمن باختيار أحجام مختلفة ذات جودة معينة. وعندما يمتلئ الصندوق كنت أسحب صندوقاً آخر وأضعه تحت الأنبوب المائل ثم آخذ الصندوق الممتلئ إلى منصة النقل الخشبية دون أي مشكلات. واستمر الحال على هذا المنوال لمدة ساعة. لا شك في أن هذا سيكون يوماً سهلاً بالنسبة لي. وشيئاً فشيئاً أخذت الطماطم تتدحرج نحوي في مجموعات، لم تكن واحدة أو اثنتين بل خمس، ثم ست، فعشر في وقت واحد. ثم أخذت تأتي في شكل دفقات. نظرت إلى أعلى ولاحظت أنه كلما زاد عدد النسوة في الخط تأتي حبّات الطماطم بكثرة! ويمتلئ الصندوق بسرعة. وحسبت الوقت فوجدت أن الصندوق يمتلئ في غضون اثنتي عشرة ثانية. يجب عليّ الآن الإسراع لنقل الصندوق الممتلئ، ثم تحركت بسرعة ورجعت بصندوق فارغ لأجد الصندوق الآخر قد امتلأ تماماً. ثم وقعت الكارثة. فعندما رجعت مسرعاً بصندوقي الفارغ الجديد شاهدت حبة طماطم تفيض عن الصندوق وتسقط على الأرض، ومن دون قصد دُست عليها، ثم سقطت حبةٌ أخرى! وفيما كنت أهم بالتقاطها، كانت هناك مجموعة أخرى تتساقط إلى حتفها. وقفت بسرعة وحاولت دفع الصندوق الفارغ من تحت الأنبوب المائل. لكن الصندوق الممتلئ أبى أن يتحرك، فقد علق في مكانه من فرط ثقل الطماطم التي تكومت عليه وأخذت تتدفق منه. واستغرق نضالي من أجل تخليصه ووضع الصندوق

الجديد مكانه قرابة خمس عشرة ثانية، وكان ذلك كفيلاً بدحرجة كميّة أخرى من الطماطم لا قِبل لي بها كانت تكفي لملء صندوق. وتساقطت على الصندوق الممتلئ ثم إلى الأرض. كانت الطماطم في كل مكان. وأعتقد أن كلمة هلع لن تكون قوية بما فيه الكفاية لوصف ذلك الشعور الذي انتابني في تلك اللحظات العصيبة، فطفقت كالمجنون ألتقط حبات الطماطم من الأرض وأضعها في صندوق آخر فارغ. وأخذت حبات الطماطم الطرية تنز عصيراً على الأرضية الأسمنتية لافظة أنفاسها الأخيرة. ولاحظت بعد عشرين ثانية انهياراً جديداً للطماطم ثم أخذت تتدحرج عبر الأرضية في مختلف الاتجاهات. جفلت كالمسعور مُسرعاً وخطفت صندوقاً فارغاً آخر وأتيت به في أربع ثوانٍ فقط، ولكن لحظي العاثر فقد علق الصندوق فيما كنت أحاول وضعه تحت الأنبوب. وفي النهاية نجحت في وضعه في مكانه. وقرّرت في تلك اللحظات أن أرجع وآتي بصندوق آخر فارغ في الحال قبل أخذ الصندوق الممتلئ. وبمعزل عن سحق طماطم إضافية فإنه لم تكن هناك مشكلة! كان ذلك أمراً لا مفر منه. كانت الطماطم تتدحرج على الأرضية في كل مكان ـ ما عدا تلك التي تشكلت وأصبحت تشبه البيض المقلي. شاهدت الصندوق وهو يمتلئ وأخذت أدفعه ـ هذه المرة بكل قوتي ـ ووضعت الآخر في مكانه. لكن أوه! يا إلهي فقد حانت مني التفاتة لأرى الصندوق الأول يضرب الأرض على جانبه يسقط من المنصة الخشبية ثم تبعته صناديق أخرى، كان مشهداً فوضوياً، أصبحت الطماطم تتناثر في كل اتجاه كأنها جيش مندحر هارب من أرض عمليات. وكانت الساعة التي تلت تلك الحادثة أشد ضبابية، بل كانت بمثابة عذاب أو لفحة من الجحيم بالنسبة لي. كانت الطماطم الميتة بدمها المُراق في كلّ مكان. بل

إن مئات هربت متدحرجة عبر الممر الطويل، وتحت الآلات وأخرى تسللت إلى دورات المياه والمكاتب. صناديق مليئة متكومة كيفما اتفق، معظمها مكومٌ على طماطم. وأخيراً أتى فرانكشتاين.

- يا إلهي، ماذا حدث؟

- تخريب.

انفلتت الكلمة من فمي كالقذيفة أو كومضة برق، ثم قال لي والشرر يتطاير من عينيه:

- ماذا!؟

- ام م م .... لقد دخل ثلاثة رجال مُلثّمون هنا ... قاموا بتقييدي، كان واحد منهم يحمل رشاش أي كي 47، وكان قائدهم يشبه أرنولد شوارزنجر. كلفني الأمر عشرين دقيقة كي أتحرر من قيدي. لم أستطع أن أستنجد لأنهم أكعموا فمي. أعتقد أنه بمقدوري التعرف عليهم في طابور عرض لدى الشرطة.

- كم تزن؟

- 70 كيلو غراماً تقريباً... هذا يُفسّر لك كل شيء.

- هذا جيد جداً. إنني فقط أتساءل: كم علبة طعام كلاب يمكن للحمك أن يعبئها؟ لا ـ ربما يتعين عليّ وضعك في كيس قبل قتلك. قابلني في مكتبي بعد خمس دقائق ومعك وصيتك.

- سيد غوليث أعطني فرصة سأشرح لك كل شيء.

- تريد أن تضحك عليّ.

- أتدري، عندما قاومت الرجل الذي كان يشبه آرنولد شوارزنجر ....

- اخرس! أنا اعرف من هم على شاكلتك! وهذا يمنحني مزيداً من السرور لتقطيع أطرافك قطعة قطعة، واحدة تلو الأخرى. لكن ابنتي تقول لي إنك تدرس في الجامعة التي تدرس هي فيها نفسها.

- نعم هذا صحيح.

- لهذا فقد طلبت ساندرا مني أن أمنحك فرصة أخرى.

- أوه شكراً لك! سأكون أكثر حرصاً في المرات القادمة. إنني مُمتن لك سوف ....

- اخرس! لا أريد أي فضلات كلب منك يا روفر. خطأ واحد وسأحولك إلى كلب ميت! ستعمل الآن مع فني الصيانة، توني ميريفي. ميريفي أريد منك أن تأخذ روفر ليبدأ العمل معك بعد الظهر. إذا احتجت لأي عملية زحف فوق السقف أو تحت المباني لتصليح أي شيء فإن روفر سوف يوفر لك هذا العناء. إذا كنت تريد جلب أي شيء، فإن روفر سوف يجلبه لك. وإذا احتاجت الخزانات المتعفنة إلى تنظيف فإن روفر سينظفها لك، إنه كلبك الوفي. لكني أحذرك: لا تتركه وحده، راقبه دقيقة بدقيقة. هيا انطلقا.

ما إن أنهى فرانكشتاين حديثه حتى زمجر في السيد ميريفي:

- حسناً. انجرّ ورائي، لا تنظر يسرة أو يمنة، ولا تنبح، ولا تبتسم. فقط نفذ ما يُوكل إليك. لا بد أن هذا سوف يكون يوم سعدك. عادة ما يتطلب عملي الزحف في السقف أو تحت المباني. لدينا اليوم عمل رائع وسهل جداً، سنقوم باختبار خراطيم إطفاء الحرائق. سأقوم أنا بالاختبار، ما عليك إلا أن تراقبني وتستمع إليّ. يوجد اثنان وعشرون خرطوماً تحتاج إلى اختبار، وتتوزع في جميع أنحاء المصنع وفي المكتب في الدور العلوي. لا أريد أن تبدر منك مجرد ابتسامة حتى ننتهي من هذه المهمة.

كان ميريفي شخصاً نكداً كثير التذمر! فعلت كل شيء طلب مني القيام به. مدّدنا الخراطيم من بكراتها، فحصناها من أي تشققات أو ثقوب، ثم قمنا بضبط حنفية الإطفاء الرئيسة، وشغّلنا الصنبور لحوالي دقيقة ووجهناه في اتجاه الحديقة وهو مفتوح إلى أقصى حد. كان الضغط هائلاً، وكانت المياه تندفع في الهواء كنافورة قوية. ولم يسمح لي ميريفي النكد بالإمساك بالخرطوم عندما كان مفتوحاً على الرغم من أننا فحصنا أكثر من عشرين خرطوماً دون توقف. وتبقى خرطومان فقط، وأصدقكم القول إنني اعتقدت أن الإمساك بالخرطوم سيكون ضرباً من ضروب المتعة. لكن ميريفي لم يعطني أية فرصة، كان عملي دائماً هو التفتيش، والبحث عن مواسير تنقّط وأمور من هذا القبيل. قال ميريفي:

- سنقوم باختبار الخرطوم في هذا المكتب، ويجب علينا توخي الحذر هذه المرة. مفهوم؟ سنوجه الصنبور عبر النافذة عندما نفتح الماء، وسيكون موجهاً ناحية تلك الحديقة. هل استوعبت ذلك؟

- بالتأكيد. أيها الرئيس.

- والآن سنقوم بأول شيء .....

في هذه الأثناء قطعت تعليماته رسالة عبر مُكبر الصوت تقول: «إلى السيد توني ميريفي، لديك مكالمة هاتفية على الخط رقم ستة». تقدم ميريفي من الهاتف المثبت على الجدار والتقط السماعة. سمعته يضحك ويتحدث بارتياح تام. وكنت أقف إلى جانبه متضجراً عندما لاحظت ساندرا وهي تجلس على مكتبها تطبع على الكمبيوتر. وقلت لها مُجاملاً:

- ساندرا. لديكِ مكتب جميل.

- نعم.

- لديكم الكثير من أجهزة الكمبيوتر والآلات المكتبية وأمور من هذا القبيل.

- بالتأكيد، إنه مكتب. هل يمكنني مساعدتك؟

- أوه، إنني فقط أنتظر السيد ميريفي. يُفترض أن نجري اختباراً على خراطيم إطفاء الحرائق، لكن يبدو أن السيد ميريفي لا يثق بي أبداً لفعل أي شيء بنفسي.

- كُن على حذر، أرى والدي قادماً ناحيتنا.

رأيته يحملق فيّ فيما كنت أقف أتحدث إلى ساندرا، ما زلت أنتظر ميريفي. استدرت واتجهت حيث الخرطوم اللعين. يبدو لي أنني لن أفوز بأي شيء أبداً، فميريفي لا يثق بي لعمل أي شيء بنفسي وسيقطّعني فرانكشتاين إذا وجدني لا أزاول أي عمل. أخذت أحرر الخرطوم من بكرته ومدّدته

على طول المكتب، ثم بدأت أتفحص إن كان به تشققات أو ثقوب. كان كل شيء على ما يرام. نظرت إلى ميريفي، كان لا يزال يدردش ويقهقه على الهاتف. وبحرص شديد تحققت من أن الصنبور مغلق، اتجهت صوب نقطة اتصال الخرطوم بالمياه وفتحت الحنفية. حسناً، لا توجد أي تسربات. لا يزال ميريفي يدردش عبر الهاتف. عُدت إلى الصنبور، ووجهته عبر النافذة وفتحته لأقصى حد. كان يتوجب عليّ أن أتذكّر أن أفتح النافذة أولاً. إنها ليست غلطتي! لأن الزجاج كان نظيفاً جداً، لدرجة أنك يمكن أن تقسم إن الزجاج مفتوح من شدة نظافته. ضربت المياه القوية الزجاج ثم انعكست لتضربني في وجهي وكانت موجهة نحو عيني. وفاجأتني هذه العملية لدرجة أنني تركت الصنبور بحركة لا إرادية. واوو، يا إلهي، هل سقط الصنبور على الأرض! لا، من الصعب أن تتخيل خرطوماً يتحرك بتلك الطريقة العنيفة، ويرش المكتب بسرعة هائلة في كل مكان. أولاً في اتجاه معين ثم سرعان ما يغير اتجاهه ليرش منطقة أخرى في المكتب. وكان أحياناً يطير في الهواء كأن به قوة سحرية، أو ككوبرا في أوج حالات إثارتها. تعالت صرخات الموظفات وهن يتابعن حركات هذه الأفعى الرمادية الشرسة التي تتمعج وتتلوى، وتارة تطير في فضاء المكتب نافثة سمها المائي بقوة تحت مكاتب الموظفات، وهي تتقافز وتعربد في المكتب غير عابئة بأي شيء. وفرانكشتاين يطارد الصنبور وهو يصرخ فيّ أن أغلق صنبور المياه، وقد حاول مراراً أن يدوس عليه بقدمه لتثبيته لكن الصنبور المراوغ كان أسرع من أن يصطاده. وفي إحدى المرات كاد يسيطر عليه، إلا أنه باغته ورشّه بقوة في وجهه كأنه كائن حي يفهم، ثم اتجه بعد ذلك صوب المطبخ الصغير. ركضت بسرعة في اتجاه الصنبور

وكنت متأكداً من أنني سوف أنجح في إغلاقه إذا لم ينتابني ذلك الرعب المفاجئ، الإغلاق في اتجاه عقارب الساعة، لكن هل ذلك الاتجاه عندما تكون واقفاً خلف الحنفية؟ من السهل جداً الخلط بين اتجاه عقارب الساعة وعكسها عندما تكون تحت تأثير ذلك الضغط والرعب. توقفت حركة رأس الحنفية بعد استدارتين، إذ لم تتحرك قيد أنملة، أعتقد أنها علقت بطريقة ما. يحدث ذلك بعض الأحيان. كنت أدرك أنه يتوجب عليّ التصرف بسرعة لإنقاذ الموقف لأن الأمر لم يعد مسلياً. كان الصنبور يعيث فساداً في المطبخ الصغير، ولاحظت أن المياه أخذت تنتشر في كل مكان ـ داخل محمصة الخبز وفي الفرن وداخل الميكروويف. وشاهدت آلة التصوير يخرج من خلفها دخان. كان الأمر خطيراً جداً الآن. انضم في هذه الأثناء ميرفي أيضاً إلى مطاردة الصنبور، وسمعته يصرخ بطريقة هستيرية: أغلق الحنفية يا غبي! إلا أن كل محاولاتي باءت بالفشل، إنني أعتذر، لقد علقت. ثم فجأة خطرت لي فكرة. ماذا إذا كسرت إحدى أرجل الكرسي الحديدي وضغطت بها بكل قوتي من خلف إطار الحنفية؟ لا شك في أن القوة الإضافية ستكمل استدارة إطار الحنفية وستتوقف المياه، وسيكون الجميع سعيدين. وفي الجانب الآخر استطاع فرانكشتاين وميرفي في هذه الأثناء السيطرة على الصنبور المنفلت العقال. وأخذا يغلقانه، ومع ذلك كان لزاماً عليّ إغلاق الحنفية الرئيسة على كل حال. وضعت رجل الكرسي خلف إطار الحنفية وضغطت عليها بكل ما أوتيت من قوة. يا إلهي! إنها عالقة بشدة. ما زالا يصرخان فيّ ـ كما لو أنني لم أحاول بذل أقصى جهدي. أرجحت رجل الكرسي ضاغطاً على الإطار بكل وزن جسمي. سمعت فرقعة خفيفة وصريراً ثم ذُهلت عندما رأيت

كامل الجزء العلوي للحنفية ينكسر. وضربتني المياه القوية فطرحتني أرضاً على ظهري. تحاملت على نفسي واستندت على قدمي وأنا أشاهد المياه ترش في شكل دائري تغطي كل أرجاء المكتب. وبدت النسوة كما لو أنهن علقن في شلال، كانت ملابسهن تبدو سخيفة. لقد أفلح فرانكشتاين وميرفي بالإمساك برأس الحية. كانت الآن ميتة في قبضتهما؛ لأن الحنفية الرئيسة قد انكسرت. كانت المياه تنبجس وترش بقوة من رأس الحنفية. لكنها على الأقل لم تكن تصل إلى أقصى درجات الجموح، كانت رشتها منتظمة تضرب في اتجاه وسط المكتب، وصاح فيّ فرانكشتاين قائلاً:

- المزود الرئيس.

- أين هو؟

ثم قال لميرفي:

- بجانب البوابة الرئيسة، اذهب وأغلقه.

ركض ميرفي نحو الباب، لكن قدمه علقت بالخرطوم فسقط بقوة. ومن حسن حظه أن كانت هناك كمية كبيرة من المياه على الأرض التي خففت من سقطته. هرع فرانكشتاين إليه، وقال يترجاه:

- أين الحنفية؟ بالله عليك لا تمت الآن!

خرجت الكلمات بصعوبة من فمه من فرط الألم الذي أصابه:

- البوابة الأمامية.

انطلق فرانكشتاين كالريح لا يلوي على شيء، وكان لون وجهه كلون سترته البيضاء وسمعته يقول قبل أن يغيب:

- لا تقلق. سأعود لأقتل روفر.

ثم سمعت ساندرا توجه كلامها إلى ميرفي:

- كيف حالك يا ميرفي؟

كان لا يزال مضطجعاً على الأرض في المياه، وهو يحاول رفع رأسه مرة بعد أخرى حتى لا تصل المياه إلى أنفه، ثم قال بصعوبة:

- أعتقد أن ذراعي انكسرت.

- لا تحركها، سوف أستدعي الإسعاف في الحال. حاول أن تبقي وجهك فوق مستوى المياه.

كانت النساء الأخريات يصرخن ويرتجفن كالكلاب المبتلة، وهن يهرولن إلى المطبخ الصغير ويحملقن في الدخان الكثيف الذي يخرج من مؤخرة آلة التصوير. ويحاولن تفادي قوة الماء الذي يرش بقوة على الكمبيوترات. بحثت عن إحدى طفايات الحريق الكيماوية. رأيت واحدة مثبتة على الجدار القريب. خطفتها بسرعة واتجهت صوب آلة التصوير المدخنة. كبست على المقبض لكنها لم تستجب. كانت هناك تعليمات مكتوبة على الطفاية، ومن فرط الهلع الذي كان مسيطراً عليّ وجدت من الصعب التركيز على تعليمات التشغيل. كنت أخشى أن تتسبب آلة التصوير في إحداث تماس كهربائي، ولم أكن أريد أي مشكلات إضافية غير ضرورية. فسألت ساندرا:

- كيف تعمل هذه الطفاية؟

- اقرأ التعليمات.

- لا أستطيع، إن كل شيء ضبابي بالنسبة إليّ.

- ألا توجد إبرة تستطيع سحبها؟ سأغادر هذا المكتب قبل أن أغرق، لا أقدر على تحمل هذه المياه طوال اليوم.

- سأقوم بكسر غطاء الأسطوانة.

- لا تفعل ذلك، إنه دخان فقط، لا داعي لذلك.

- يجب أن تثقي بي هذه المرة.

أمسكت بطفاية الحريق وضربت عنقها بكل قوتي بعتبة النافذة الأسمنتية. وبعد ثلاث أو أربع ضربات متتالية انكسر عنق الطفاية، وبدأت تنفث رغوة هائلة، كأنها بركان من كريم الحلاقة، انبجس في الهواء. كان ميرفي يصرخ ﭬ إلا أن صرخات النسوة كانت أعلى، فقلت لهم عبر هدير صوت رش المياه المتواصل من الحنفية المكسورة:

- صدقوني إن هذه الرغوة كفيلة بإخماد النار.

لكنهم كانوا يتدافعون كالكلاب المذعورة هنا وهناك في محاولة منهم لتفادي العاصفة الجليدية الرغوية التي أخذت تسبب الاختناق في المكتب. أصبحت المياه الآن على مستوى الكاحل، وأخذت تفيض من تحت الباب. بدا الذعر واضحاً على أوجه الموظفات. هرعن لأخذ أوراق مبللة بالمياه من مكاتبهن محدثات حالة من الهياج والفوضى الممزوجة بالذعر، وأخذن يقذفن الرغوة بالورق وبحقائبهن اليدوية. وأعتقد أن المشكلة الأساسية التي أعقبت ذلك هي كاشفات الدخان. كان يبدو أنها ليست موصلة بنظام الحريق فحسب، بل مصممة أيضا لتوقف عمل المنظومة الكهربائية كلها

في مثل هذه الحالات. تخوض الموظفات في المياه التي أصبحت الآن أعلى من مستوى كواحلهن، وهن يحاولن جاهدات الخروج لإنقاذ أنفسهن. الله وحده يعلم ما يفعل فرانكشتاين في هذه الأثناء. لا تزال الحنفية المكسورة تطلق المياه كالنافورة. أخذ ميرفي الذي نهض بصعوبة يصيح بصوت أقرب للبكاء ويجري محاولاً تحريك الكمبيوترات من اتجاه رش النافورة. كان رأس الحنفية المكسور يرش بأسلوب تشكيلي رائع في كل اتجاه، وكانت المياه تطال كل شيء بالتساوي: الكمبيوترات، الطابعات، آلة التصوير، الهواتف، الفاكس وكل المستندات الورقية القابعة على المكاتب. وتبعت الموظفات بحركة خجولة نازلاً السلالم، آملاً أن لا يلاحظني أحد. وكان في الخارج حالة من الذعر وجلبة وصياح، وكل ما استطعت سماعه هو صوت صفارة إنذار جهاز الحريق الخاص بالمصنع. وقد توقفت الكهرباء آلياً عن المصنع وتوقف العمل. كان الكل يهرول خارجاً في اتجاه الحديقة لتفادي اللهب. ولحسن الحظ فإن فرقة الإطفاء كانت ذات خبرة عالية، وكنت أستطيع رؤيتهم يوزعون الخوذات ويسحبون الخراطيم في كل مكان. وفيما أخذت أنزل السلالم نازلاً من المكتب، ابتدرني قائد فرقة الإطفاء قائلاً:

- هل النار تشتعل في المكتب؟

- نعم، لكن الخرطوم مكسور.

- ماذا! هذا يعتبر سوءاً في الصيانة، في الوقت الذي نريد فيه استخدام الخرطوم لإنقاذ المبنى - نفاجأ بها لا تعمل، هذه فوضى، إن ميرفي مجرد رجل مهمل ....

في هذه اللحظة كان ميرفي يهبط السلم ممسكاً بذراعه، وقال بغضب واضح:

- حاسب على ألفاظك. إن الصيانة تمت على أكمل وجه.

- إذا كانت الصيانة تمت، لماذا انكسرت الآن؟ ليس لدي وقت لأضيعه في الجدال معك يا ميرفي، سوف أشير إلى تقصيرك في الصيانة في التقرير الذي سأقدمه. جاك! مد الخرطوم رقم أربعة ورقم سبعة ووجههما إلى المكتب العلوي حتى يتم إخماد النيران.

وفي هذه الأثناء أخذ أحد رجال الإطفاء يصيح:

- أيها القائد، هناك انقطاع في المياه.

- ماذا؟ يا إلهي!

فقلت له:

- نعم، لا بد أن فرانكشتاين قد أغلق المصدر الرئيس الآن.

- هل فعل ذلك حقاً؟

وأشرت ناحيته بينما هو يهرول بأقصى سرعته في اتجاهي.

- نعم لقد فعل ذلك.

- فرانكشتاين! من الذي قال لك أن تغلق الماء؟ أنا الرئيس هنا في حالة نشوب حريق. أنا مراقب فرقة الإطفاء هنا.

وأخذ فرانكشتاين يصرخ في وجهه:

- هراء! كان لا بد أن أغلقه، لم تكن هناك حاجة للماء. ثم أنا الرئيس.

- تشتعل الحرائق في المصنع وأنت تغلق المياه! ألا تفهم القوانين أيها الغبي؟

- أقول لك لا يوجد حريق! أيها القزم الحقير!

وفي تلك اللحظة سمعنا صفارة الإنذار الخاصة بفرقة الإطفاء، لم نسمعها من قبل؛ لأن صفارة المصنع كانت عالية. وبعد دقائق قليلة شاهدنا سيارتي إطفاء ضخمتين تدلفان مسرعتين نحو الفناء، وتوقفتا بالقرب من مراقب فرقة الإطفاء في المصنع وفرانكشتاين اللذين كانا يصرخان ويتصارعان. أشار الجميع ناحية المكتب، حيث كان ينبعث خيط رفيع من الدخان من النافذة المكسورة. بدأ رجل الإطفاء يمارس مهامه وسط تلك الجلبة الكبيرة بتمديد الخراطيم وأحضر فأساً وسلماً. كان مراقب الإطفاء يصيح في أفراد فرقته ليسحبوا فرانكشتاين منه، لكن لا أحد يقوى على فرانكشتاين إذ كان يصارع خمسة رجال دفعة واحدة. يا إلهي! إنه يقاتل بشراسة. وقال قائد فرقة الإطفاء:

- حسناً، أعلنوا عن بدء إضراب عام! اتصلوا بالنقابة. جالاغر، ادعُ إلى اجتماع عاجل.

كان أفراد فرقة الإطفاء يعملون بفؤوسهم في الأبواب. وفي هذه الأثناء وصلت سيارة الإسعاف، لكن السيد ميريف رفض أن يركب. وقال معترضاً:

- لن أصعد إلى سيارة الإسعاف حتى يعتذر لي هذا المراقب المغرور عما بدر منه. وأين هذا الحقير روفر؟

شعرت ساعتها أنه قد حان وقت الرحيل عن المصنع. بدا لي أن مستقبلي هنا مشكوك فيه، فالترقية ستكون صعبة جداً، ويبدو أن ساندرا أصبحت باردة تجاهي. وفي ظل تلك البلبلة وجدت الفرصة سانحة للتسلل من أرض المعركة عن طريق موقف السيارات، واستطعت أن أفلت بجلدي من غضبة فرانكشتاين وميريف فيما بدأت جحافل الشرطة ومراسلي التلفاز بالتوافد لنقل الحدث، وتصوير الفؤوس وهي تتأرجح في الهواء لتهوي على باب المكتب العلوي لتقطيعه قطعة قطعة. والعناوين الرئيسة في صحف اليوم التالي تعكس لك كيفية تحريفها للأمور:

- «أتت النيران على مصنع تعليب الأطعمة وعطلت عمله».

- «جُرح سبعة رجال مخمورون في معركة المصنع».

- «التحقيق في التقصير في الصيانة».

- «صرح غالاغلر بترجيح حدوث إضراب».

ربما ستتفهمون الآن لماذا لم أكترث لأعود لأتقاضى أجري نظير يومي عملي في المصنع.

9- مسألة ثقة

عندما ماتَ زوجي تركني مكبلة بالديونِ وأنوء تحت ثقل تحمل مسؤولية طفلينا. وكان الدين عبارة عن رهن عقاري على المنزل، بالإضافة لنفقات تربية الطفلين المستمرة التي استنزفت دخلي المتواضع. وخاصة بعد دفع أقساط التأمين على الحياة، فقد أصبحت مدينة بعشرة آلاف دولار. ربما لا يَبْدو المبلغ كبيراً، لكن الأَمر كان هائلاً بالنسبة لي نسبة إلى أنني أعتاش على نظام الضمان الاجتماعي، وأُكافحُ من أجل إرْسال الطفلين للمدرسة، وأعمل على إدارة المزرعة الصغيرة. كانت مزرعتنا الصغيرة تقع بالقُرْب من منطقة إيدين على الساحلِ الجنوبي، لقد أحببتُ تلك المنطقة. انتقلت أنا وزوجي الراحل رون إليها بعد مدة قصيرة من زواجنَا. كلانا اتفقنَا على أنّها مكان مثالي لتَرْبية الأطفالِ بطريقة سليمة وعملية. وقد رغبت في أن أبقى فيها بعد موتِه لأنني أحتفظ فيها بذكريات عطرة ودافئة لرون. إلا أن أمّي تريدني أنْ أبيعها وأنتقل إلى ملبورن لَكنني كنت أكره تلك المدينةَ، وانتقالي إليها سَيَكُونُ آخر شيء أفكر فيه. وعندما أعلنت عن بيع المزرعة في إحدى وكالات العقارات فقط لأرى الثمن الذي ستَجْلبُه لي، كان العرض الوحيد الذي تلقيته تافهاً جداً، لكنني كنت على يقين إذا صبرت لمدة خمس سَنَواتٍ أخرى فإن الطلب سيَكُونُ عالياً على الموقعِ من أجل بناء ضاحية جديدة، ويمكنني بعد هذه السنوات الخمس أنْ أسمّي السعر الذي أريد، وسيكون كافياً لتأمين مستقبلي وإرسال أولادي إلى الجامعةِ وشراء منزل في ضاحية أخرى ... أينما أريد.

كنت أقوم كُلّ يوم بقطع مسافة عشر كيلومترات بالسيارة لإيصال أطفالي إلى المدرسة. لم تكن هناك حافلات قُرْب مزرعتنا مطلقاً، لذا فإن السيارة تعد ضرورية. كَانتْ سيارتي ماركة لينيكس زرقاء اللون، إلا أنه لم تكن لدي أدنى فكرة عن السَنَة التي صنعت فيها. كُلّ الذي أعرفه عنها أنها كانت قديمة جداً. وقد كَانتْ بمثابة لعبة زوجي المفضلة، فقد كان يحب السيارات القديمة وكان لا يمل أبداً من الاعتناء بها وصيانتها. كنت في بعض الأحيان أرى سيارة لينيكس أخرى تمر بي، بلوحتيها المميزتين وتحمل في مؤخرتها علامة وكالة ليك إنترانس، وما إن تتخطاني السيارة الأخرى حتى يُومضُ لي سائقها بأنوارها ويُلوِّحُ لي بيده، وكنت أبتسم وأرد عليه بتلويحة مني. كانت سيارته ذات لون أحمر جميل وعجلات إطاراتها مطلية بمعدنِ الكروم اللمّاع. لم أكن أعْرف الكثير عن سياراتِ اللينيكس، وكُلّ الذي أعرفه أنها تأخذنا إلى المدرسةِ والمحلات حتى يصيبها عطب ما، حينها أتصل بالمرآب، فيقوم هاري بسَحبها إلى ورشتِه ليرى ما يمكن عمله لإصلاحها. كنت أعْرفُ هاري منذ ثلاث سَنَواتٍ تقريباً؛ وقد طلّقَ زوجته، وهو مثلي يقوم بتَربية طفليه بنفسه. وقد حاول مراراً وتكراراً التودد إليّ وعبرّ لي عن رغبته في تكوين علاقة صداقة مَعي، لَكنّني كنت أشعر أنه من الصعب الوثوق بأشخاص مطَلّقين. لا بدّ أن يكون هناك شيء يدعو لعدم الثقة بهم في طبيعتِهم، ولا بد من وجود عيب ما أدّى إلى فشلِ زواجِهم. وعندما أخبرَني بأن سيارتي غير قابلة للإصلاح وأن لا جدوى من إصلاحها صُدِمتُ وارتبت في الأمر. فقد اقترح علي بيعها وشراء سيارة أخرى مستعملة ماركة تويوتا. فقلت له:

- وما مشكلة اللينيكس؟

- تحتاج الأجزاء الأمامية إلى إصلاحات هائلة ـ السبب في ذلك هذه الطرق القديمة المليئة بالمطبات.

- لكن أليس بالإمكان شراء قطع الغيار هذه وتركيبها؟

- قطع غيار للينيكس؟ لا، لقد أوقفوا إنتاجها منذ أربعين سنةً. أنت محظوظَة أنْ عاشت سيارتك طوال هذه المدة الطويلة. وإصلاحها سيُكلّفُ ... أوه سيكلفك حوالي خمسة آلاف دولار تقريباً.

هَزَّ رأسهَ ثم استطرد قائلاً:

- لا جدوى من ذلك، من الأفضل لك أن تشتري سيارة أخرى.

- ولا بد أنك تعرف أين يُمْكِنُني أنْ أجِدَ سيارة أخرى؟

قلت له ذلك وقد تملكني الغضب، أولاً كان يقول لي إن وسيلة نقلي الوحيدة قد انتهت، ثمّ ها هو الآن يُحاولُ إقناعي أن بإمكانه شراء سيارة أخرى لي، الأمر الذي يعْني قرضاً مصرفياً آخرَ. في الوقت الذي لا أستطيعُ فيه أنْ أتحمّلَ دَفْع قرضٍ آخر؛ لا بد من بيع كل شيء والذهاب إلى ملبورن.

- لا، لَكنني سَأكُونُ مسروراً لُمسَاعَدَتك في البحث عن سيارة أخرى.

كَيْفَ أئتمنه وكثير من المال مهدّد بالضياع؟ فقلت له:

- سَأتْركُ السيارةَ في المرآبِ في الوقت الحالي. سَأحاولُ بيعها.

أخبرتُه بذلك ثم أخذتُ سيارة أجرة أقلتني إلى المنزل ـ نفقات أخرى ـ وفكرت في أثناء رحلتي إلى المنزل بشأن هاري، أيحاول عَصْر

حوالي خمسة آلاف دولار مقابل الإصلاحات منيّ، أم إنه سيشتري لي سيارة مُستَعملة؟ كَيفَ لي أن أعرف أنّه لن يحتال عليّ؟ خابرتُ وكالتين لبيع السيارات المستعملة وطَلبتُ مِنْهما إلقاء نظرة على سيارتي اللينيكس القابعة في مرآب هاري لأرى كم سيدفعون لي ثمناً لها.

اتصل بي هاري الصادق في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم:

- سّيدة هيل؟ هَلْ يمكنني أنْ أدعوك جان؟ لدي أخبار رائعة لك ـ لقد عثرت على سيارة مناسبة. أنا متأكد من أنها ستعجبك، إنها سيارة تويوتا صفراء، آلية، لم تسر سوى أميال قليلة، نظيفة جداً وكل أجزائها خالية من العيوب، وقد سعّرت للبَيْع بتسعة آلاف ومائة دولار. وأراهن أن هذا السعر سَيَجْعلُك سعيدة!

- نعم، لكن ماذا بشأن اللينيكس، كم ستدفع لي مقابلها؟

- أوه حَسناً، هذا محزنٌ نوعاً ما يا جان، فقد ألقيت نظرة فاحصة عليها، على الرغم من أنها سيارة قديمة ورائعة. لكن بصراحة لا أحد يهتَمُّ بشراء سيارة قديمة مثلها، خصوصاً وأنها ليست صالحة للاستخدام الآن. بالطبع تعلمين أن الشركة الصانعة لم تنتج سيارات لينيكس كثيرة، وفي الحقيقة من الصعب علينا بيعها، كلّ ما يمكنني فعله هو منحك مائة دولار ثمناً للإطاراتِ والبطارية. لقد استشرت أيضاً وكالة شراء السيارات الخردة إلا أنهم لم يُهتَمّوا بشرائها مطلقاً، ويَقُولُون: لا طلب عليها.

- شكراً لمحاولتك مساعدتي، لَكنّ إمكانياتي لا تسمح بشراء التويوتا. سَأعلمك إذا غيّرت رأيي.

وضعت سماعة الهاتف وأجهشت في البكاء، عندما قدّمت لي وكالة شراء السيارات المستعملة الأخرى تسعين دولاراً فقط مقابل اللينيكس. ولا يمكننا العيش في المزرعة دون سيارة، في الوقت الذي لا أستطيعُ فيه تحمّلَ تكاليف سيارة أخرى. شعرت بأن قلبي يغور وفكّرتُ في ملبورن وعربات الترام والمطر والزحام وأطفال الشوارع، ثم انتحبت. سَأبيعُ الموجودات التي ستوفر لي المالَ لمستقبليَ ودراسة أبنائي في الجامعةِ، وسأبيع ذكريات رون. جَلستُ وحدّقتُ في الحائطِ، ولعنتُ هاري لتَحْطيمه أحلامي. وعندما رن الهاتف فوجئت بسماع صوتِه.

- سّيدة هيل؟ اتصلت بك بشأن موضوع سيارتِك - اللينيكس.

- لَكنّني لم أقرر بعد.

- هل توَدّين بيعها حقاً؟

- نعم، لكن مائة دولار قليلة.

- أعْرفُ ذلك، لَكن عِنْدي لك مشترياً، السّيد فيشر؛ يَبْدو أنه يعْرِفك. خذي كلميه.

- أهلا بالسّيدة هيل! أخيراً وجدتك. أنا متأكّدٌ أنك تَعْرفينني؛ أنا الذي أقُودُ السيارة اللينيكس الحمراء وقد مررتِ بي مراراً. وكنت دائماً أُومضُ لك أنوار سيارتي وألوّح لك بيدي لتقفي كلما صادفتك. كنت أحاول العثور عليك منذ اثني عشرَ شهراً، لقد لمحت سيارتك اللينيكس في المرآبِ. إن تعطل جهاز القيادة في سيارتك شيء يدعو للأسف، لكن على أية حال أوَدُّ شراءها.

- لماذا؟

- أوه، فقط من أجل محاولة إصلاحها، إنها هواية. انظري، سَأعطيك خمسة آلاف دولار.

- خمسة آلاف!

كان ذلك أكثر بكثير مِن الدولارات التسعين التي قدمها لي بائع السيارات الخردة. وسمعت في تلك اللحظات صوت هاري وهو يقاطع السيد فيشر ثم يتكلم معي عبر الهاتف:

- جان.

لم يسبق له أنْ دَعاني بجان من قبل، ما الذي يرمي إليه هذا الرجل حقاً؟

- هَلْ تودّين أن أحصل لك على سعر مناسب من السّيدِ فيشر؟

من أجل ماذا؟ أعتقد أن خمسة آلاف دولار عرض طيب! ما الذي يدعوني للوثوق بهاري.

- أخبر السّيدَ فيشر أنني سآخذ المبلغ.

لم أستطع تصديق أذنيّ عندما سَمعت هاري وهو يقول للسّيدِ فيشر:

- إنها تقول إن السعر غير كافٍ بالنسبة للينيكس قديمة. تُريدُ خمسة عشر ألف دولار.

عاد السّيد فيشر للهاتف وقال لي:

- لن أزيدك دولاراً واحداً فوق اثني عشر ألف دولار - هناك سيارة أخرى في إديليد بالسعر نفسه هذا عرضي الأخير.

- أوه حَسناً . . . سأقبل العرض سيد فيشر. لَم أعْرفْ أن هناك سيارة أخرى. هَلْ يُمكنُك أن تَترْكَ المالَ مَع هاري؟

قال السّيد فيشر:

- هَل تثقين بي إذا حررت لك شيكاً؟

لقد حان الوقت لأثق في الناسِ، فقلت:

- نعم، بالطبع. اتركْه مَع هاري.

- هل تُريدين مني أنْ أعطيه الشيك؟

- نعم، إنني أثق بهاري. هَلْ يُمكِنُ أنْ تعطيني هاري لأتحدث معه؟

قلت موجهة كلامي لهاري:

- شكراً لك يا هاري، هل يُمْكِنُك أن تحضر لي الشيك غداً في المساء. . . وإحضار أولادك لتتناولوا العشاء معنا؟

